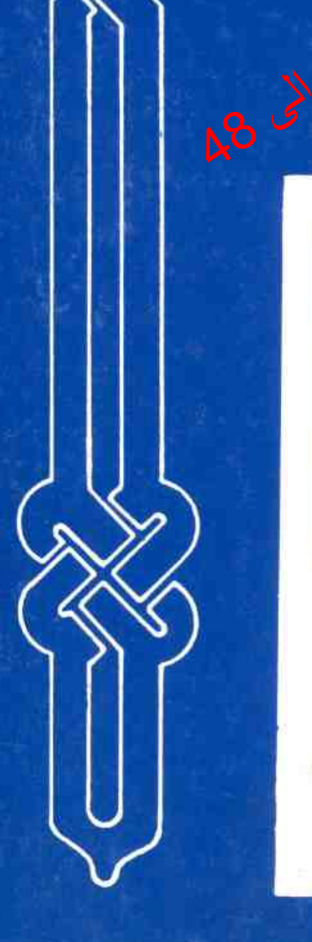


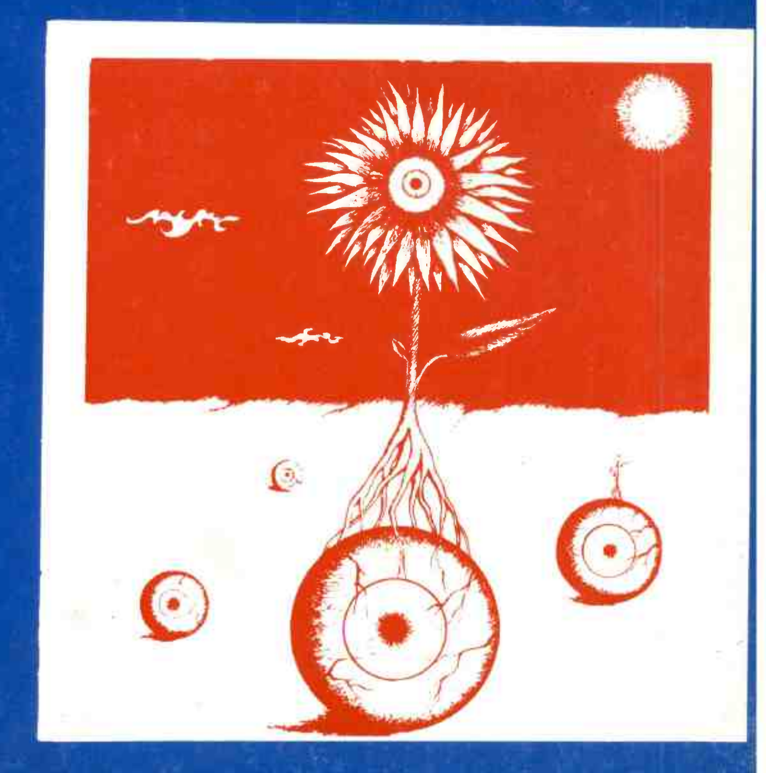
العودة الى الذات



محاضرتان

للدكتور علي شريعتي

ترجمة: سميرة فطحي



ألعودة الى الذات

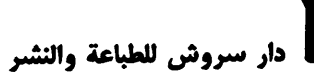
محاضرتان

للدكتور على شريعتى

ترجمة: سميرة فطحى

١٤٠١ هـ . ق/ ١٩٨١ م.
دار سروش للطباعة والنشر

سلسلة الفكر الثورى الاسلامى (۳)



طهران، الجمهورية الاسلامية الايرانية
الكتاب: العودة الى الذات
المؤلف: الدكتور على شريعتى
المترجمة: سميرة فطحى
الطبعة الاولى، سنة ١٤٠١ هـ . ق /١٩٨١ م.
تمّ تنضيد الحروف باللاينوترون فى دار سروش للطباعة والنشر
طبعت من الكتاب ١٠،٠٠٠ نسخة على مطابع فروغ دانش

محسن يوسف الكويتي

ألعودة الى الذات

أيها السيدات والسادة، أيها الحاضرون، أيها الطلبة الأعزاء، يسرني أن ألتقي لاول مرة وفي هذا المكان الذى هو بمثابة الدار الروحية و المعنوية بالنسبة لى، بأشخاص هم فى الواقع أقاربى فى الروح، و أقاربى فى المعنى وهم الاشخاص الوحيدون الذين يضفون الى حياتى، الهدف والاتجاه، ويمنحوننى فلسفة البقاء.

انّ مجتمعنا كسائر المجتمعات، وعصرنا كباقى العصور قد تقولب فى قوالب، و تقطبت أفكاره، و تعينت مواصفات عقائده، فالشخصيات معينه و ذات اتجاهات محددة: كالمتدين، والمثقف، والمتعلم، وحامل الشهادة، والعامى، والنخبة والرجعى والتقدمى. ولكل من هذه الشخصيات اطارات متميزة، وعلاقات بيّنة، ولغة مفهومة، يتفاهمون بها فيما بينهم وعلى كل من يريد أن يكون رجلاً ناجحاً فى هذا العصر، وعنصراً مفهوماً فى المجتمع، له طريقة ناجحة فى التفكير؛ عليه أن يحدّد اتجاهه الفكرى فى المجتمع، كما يقول الكتاب التقدميون اليوم للفنانين و الكتاب بأنه ينبغى على كل كاتب وكل فنان أن يحدد قاعدته الطبقية ـ وهذا كلام صحيح للغاية ـ ويجب أن يحدد كل فرد أيضاً قطاعه الاجتماعى والفئة التى ينتمى اليها من بين الفئات الموجودة اليوم فى كل مجتمع والتى لها أنصارها و مؤيدوها المعروفون.

وعند ما يحدد كل شاعر، و كل كاتب، و كل مفكر صفه الذى يقف فيه ويعلن أنه متدين، أو مثقف غير متدين أويحمل الايدئولوجية الفلانية، أوينتمى

الى الكتلة الفـلانية، أو الجناح الفـلانى، سـيتفهّمه الناس بســهولة، وبالتالى سيحدد هذا الشاعر أو الكـاتب أو المفكـر كذلك أنصـار أفكـاره. غير أنه ليس للبعض مثل هذا الحظّ كى يختاروا من بين النماذج الفكرية الموجودة ـ ككون الفرد متدينا، أو معارضا للدين، أو مثقفا، أو من ذوى الايدئـولوجية الفـلانية أم من المنتسبين الى الجناح الفلانى ـ قالبا لشخصيتهم ويحددوا لانفسهم احدى هذه الرؤى أو العقـائد أو الاتجـاهات. وهؤلاء هم أشـخاص اذا ما تكلموا عن الدين فسوف لا يتفاهم معهم المتدينون قبل غيرهم، و اذا ماتحدثوا عن مسألة أو طـرحوا بعض القضـايا من منطلق المثقفين اتهمهـم المثقفـون أكثر من غيرهم، وأساؤا فهم حديثهم. ويظل مثل هؤلاء الأشخاص غرباء دائماً، يسـاء فهمهم حيث يعـدمون مبادئ الاختيار المعـروفة، وبالضـرورة، لابد أن يكـون هؤلاء الاشخاص، أشخاصاً يائسين، اذ عندما ينظرون الى الأجنحة المختلفة، يجدون أنفسهم غير قادرين على أن يكونوا جزءً منها مائة فـى المائـة، وعندما ينظرون الى الايدئولوجيات العصرية السائدة، يجدون أنفسهم غير قادرين على الظهور فى المجتمع كأحد المؤمنين باحـدى تلك الايدئـولوجيات مائـة فـى المائة. وعند ما ينظرون الى الدين الموجود، يجدون أنفسهم غير قـادرين على اعلان اسـتسلامهم للدين التقليدى المنّوم. وعند ما ينظر هولاء الى المجتمع، ويجدون فيه عوامل هى السبب فى انحطاط الناس عبر قرون عديدة وأنهـا قـد تأصلت فيهم و تلاحمت بافكارهم، و آدابهم و نفسياتهم، يسـتنتجون من ذلك ضرورة مرور عدة قرون لاستبدال كل ماتأصل فـى أعماق أفكـار الناس وأدّى بهم الى الجمود والسكون، بالوعى والحـركة وسـلامة التفكير، بيد أنّ الواقـع يشهد لنا خلاف هذا الامر.

كانت هناك فى آسيا و أمريكا اللاتينه دول تعتبر بمثابة دور للقمار، ومحلات خـاصة للأعمال الفـاسدة لذوى رؤوس الاموال الغــربيين، تلك الدول التى وضعت أفضل مواهبها وعقولها، فى خدمة أسيادها وتلك الدول التى كانت قـد اعتادت الاستعمار وخدمة الاسياد والاستسلام للقوى الخـارجية طـوال قـرون عديدة، حتى سادها الاعتقاد بذلتها وبكـون عنصـرها أقـل شأنا من العناصــر الاخرى. ولو كان أحد علماء الاجتماع قـد نظر الى أديم مثل هذا المجتمع، لما

وجد فيه حنيئذ أى شيئ يدل على أمل انبعاث الحركة فيه حتى بعد قرون اخرى.

المعجزة تحدث

أجل، حدثت المعجزة فجاة في مثل هذه المجتمعات، وياِلها من معجزة عظيمة، لم يتمكن علماء الاجتماع من فهمها وفهم أنه كيف ينهض فجاة مجتمع كان الفساد والضياع والجهل والغفلة والرتابة، والتمسك بالتقاليد والاوهام، والعبودية تسوده حتى الاغماق كيف ينهض فجأة، وكيف يسرى دم الحياة الدافئ فى عروقه، وكيف تعمه الحركة، وكيف يرمى جانباً ذلك القناع التافه الذى كان يغطى وجهه، وكيف يتخذ نفس الجيل موقف الانسان الحر الواعى المسؤول، صاحب الارادة والعزم، وكيف تنبعث الحركة والحياة فجأة في قلب مجتمع ميّت تحوّل الى مستنقع التاريخ؟ اجل، لاشك أن روحا قد نفخت فى هذه القوالب الجامدة و بعثت فيها فجأة مثل هذه الحركة، اذ تحولت نفس دور القمار الغربية الشهيرة، ونفس البلدان التى كانت محلاً للفساد، ومحلاً للقمار و محلاً للتهريب الدولى، تحوّلت فجأة الى مركز للحياة، وللفكر وللحركة وللوعى.

ومما لا شك فيه أن هذه المعجزة قد وقعت بعامل ليس هو الاّ عامل الوعى، ولكن ليس ذلك الوعى من النوع المرسوم اوالمستورد، أو موضة تصل من الغرب فجأة كمعلّبة غذائية ذات مواصفات معينة، وماركة مسجلة ليستهلكها المثقفون، وليصبح كل من يستهلكها مثقفاً، كلا ليس هذا الوعى، وانما هو وعى مستقل لفئة تبلغ الوعى فجأة على ضوء تاريخها، و على أساس مشاكلها، وتدهور أمورها، ومدى تأثيرها على عوامل انحطاط مجتمعها، وهو وعى يحدث بريقا فى أفكار مجتمع تلك الفئة حيث يصبح كل فردٍ فيه «بروميثة» يأتى بالنار الالهية الى أرضه ويضعها فى متناول قومه، ثم يشق بطن الشتاء، والظلام وينبت ويزدهر ثم يجذب اليه جهود النبوغات والبطولات وجهود التاريخ، أى انه وعى مشفوع بالحب والايمان، وهذا النوع من الوعى هو الذى يظهر، وينقذ مجتمعاً ساده السكون والجمود والظلام لمئات أو

لآلاف السنين حيث اعترف مثقفـوه وعلماؤه الاجتماعيون، وعلماء الاجناس والعناصر فيه، اعترفو اجميعاً بغبائهم، واستهزأوا بأنفسهم فـى العـالم، وكان العالم قدعرفهم شعباً تافهاً وُجد اساساً لكى يكون مطية للاستعمار، وهو الوعى الذى يبعث فيهم قوة معنوية هائلة، تقضى فجأة وكأعمال السحر العجيبة على كافة الاشياء التى تأصلت فى علاقاتهم الاجتماعية عبر الف، او الآف السنين، وأصبحت جزءً من نظامهـم السـائد الموروث، وجـزءً من عقـائدهم الدينية التقليدية الموروثة، حتى تراهم كانوا يغطون فى سبات عميق فى تلك القـوالب والاطارات القـديمة المتهـرئة وهو الوعى الذى يمنح هولاء الحياة من الموت، والحركة من السكون.

وهذه هى تجربة يجدها جيل الشباب أمامه، لاسيما بعد الحـرب العـالمية الثانية، وهى تجـربة تمنح الأمل لكـافة المثقفين اليائسـين وتحمل جميع المثقفين الذين لايفكـرون على مسـتوى التحـاليل الواقعية السـطحية، ولا يصابون على هذا الأساس، باليأس الفلسفى، واليأس الاجتماعى تحملهم على الاعتقاد، بامكانية حدوث مثل هذه المعجزة العظيمة فـى مجتمعـاتهم رغم كل عوامل البلبلة وتدهور الامور فيهـا، وتحـوّل الكتل المتفـرقة والمشـرفة على الهلاك والاندحار الى مجتمع سـعيد، مجتمع انسـانى، ذات عنصـر جـديد ولون جديد، وفكر جديد على حد تعبير فرانس فانون. وكنت قد ذكرت قبل فترة فى طهران بأننى لم أصـادف طـوال عمرى مثل هذه المعجـزة العـظيمة، ولم تتبين لى مثل هذه المسالة الهامة.

العنصر الغربى والعنصر الشرقى

لقد شـهدنا خـلال الاعوام ١٩٥٥-٦٠ م. أنه حتى ارنسـت رنان نصـير الانسانيه يقول: «ان الغرب فى عنصـره هو صـاحب العمل، وان الشـرق فـى عنصره هو عامل ولهذا نرى الطبيعة تزيد وتكثر من عنصـر العـامل، وتقلل من عنصر صاحب العمل». وكان زيجفـريد يقـول: «ان الغـربى له عقلية صـناعية وادارية قادرة على صُنع الحضـارة، اما الشـرقى فله عقلية شـعورية عاطفية متوسطة وهو عاجز عن التفكير والاستنتاج ووضع القوانين الحديثه». ويقـول

موريس توزر زعيم الحزب الشيوعى الفرنسى وأحد زعماء الحركة الشيوعية العالمية، وأحد الشخصيات البارزة المعدودة فيها: «ان الشعب الجزائرى وشعوب شمال افريقيا والشعوب الافريقية بأسرها هى ليست شعوباً، وانما هى لاتزال فى طريق الصيرورة لتكون شعوباً» اى ان سيطرة الاستعمار الفرنسى عليها، لها مبررها. ولو شاءت هذه الشعوب أن تتعرف على الحضارة، وأرادت أن تصبح شعوباً متمدنة، فلامناص لها الاّ الحياة والتربّى فى أحضان الام القاسية اى الماديّة فترة من الزمن. هذه هى أفكار هذا السيد الاشتراكى، ولكنكم رأيتم بعد ذلك اى تطور حدث فى هذا الشعب ذاته والذى أسموه بالفأر الصحراوى، نتيجة لمعجزة الوعى المشفوع بالحب والايمان.

لقد رأيت أنا بنفسى فرنسا التى كان فخرها أنها مهد حرية الفكر على مستوى العالم، ورأيت باريس التى كانت تفخر لأن كل مقهى فيها شهد تكوين النواة الاولى للثورات العالميه الكبرى، رأيت باريس التى كانت تتباهى بالقول: ان احضانى مفتوحة لكل الايدئولوجيات ولكل النهضات، ولكل الثورات مهما اختلفت وتباينت، باريس التى كانت تعتقد بأنها قوية لدرجة تستطيع فيها قبول واحتضان أكثر الافكار، واكثر الاحزاب، واكثر المدارس الفكرية، واكثر القوى العالمية ثوريةً، دونما خشية وخوف، باريس التى كانت تعتمد على قدرتها الفكرية والايدئولوجية لدرجة أنه كان يوجد فى شارع واحد فيها وهو شارع «سان ميشل» سبعة عشر مكتباً للنهضات، والايدئولوجيات، والصحف الرسمية المختلفة، كمكتب الواقعيين من أنصار عائلة «لوئيس» أنصار عودة الملكية، ومكتب الفوضويين وحتى مكتب أنصار اليوغا ومكاتب مماثلة للثوريين الأفريقيين، والثوريين فى امريكا اللاتينية، باريس التى كان فخرها وجود حضارة أوربية، وديمقراطية غربية، وليبرالية قوية فيها، وكانت تتباهى وتتبجّح بذلك دائماً، أجل فى باريس هذه التى كانت تسمح بطبع صحف و نشريات البلدان الثورية والآسيوية التى لم تكن على علاقة سياسية معها، ذهبت يوماً لشراء مجلة ثورية أفريقية، فقالوا لى: ان وزارة الثقافة الفرنسية قد حظرت نشر هذه المجلة لتاثيرها الانحرافى السىء على أفكار المثقفين، وعلى طبقة الشباب الفرنسى المتعلم، ولكونها عاملاً خطراً عليهم.

اذن، ماذا حدث حتى تخشى الحكومة الفرنسية من انتشار مجلة يقوم باصدارها فى پاريس ثلّة من الشباب الافريقيين هم أبناء شعب لم يكن له حق ابداء الرأى كما يقول سارتر الاّ أن تضع پاريس، أو لندن، أو أمستردام الكلام على لسانه. انها المعجزة التى يصنعها الايمان والوعى، المعجزة التى تنقض فجأة كل ما غزله المتحكمون بالتاريخ رغم ارادة المجتمع طوال قرون عديدة، وتحرقه وتجعله رماداً، وانها أمثولة لكل اولئك الذين لايريدون الرضوخ لأى قالب تقليدى رسمى قديم أولكل قالب يستورد من الغرب، بل يريدون أن يفكروا وأن يتفهموا وأن يدركوا وأن يختاروا هم أنفسهم، وبالضرورة يبقى هولاء فى مجتمع دون ملجأ، ودون قاعدة، ودون مركز وعليهم أن يكونوا متفاءلين، ولو استطاعوا أن يتحلّوا بالاستقامة والمثابرة واللياقة ويكونوا قادرين على ادراك قيمة البقاء فى الحرمان والعيش بالكلمة، وبناء العمر على الفكر، والتنفس بالايمان والموت على أساس ايمانهم، لابد لهولاء أن يكونوا متفاءلين بأن يشع فجأة وميض هذا الوعى فى هذا الجمود وهذه التفرقة وهذا السبات، وأن يذوب فجأة الجمود العارض المتشكّل الذى أدّى الى يأس المثقف السطحى، وأن يظهر فجأة من بين الانحطاط والجهل واللاأصالة، واللا مسؤولية مجتمع متماسك متحد ذو هدف واحد، وحركة واحدة، ومسؤولية واحدة وذلك على أساس الوعى المشفوع بالقوة والحبّ.

العودة الى الذات

طيب! اننى أودّ أن أتناول هنا قضية أساسية هى تلك القضية الأساسية المطروحة اليوم لدى المثقفين، مثقفى أفريقيا، ومثقفى أمريكا اللاتينية، ومثقفى آسيا، والتى طرحت فى ايران فى الآونه الأخيرة، (على رغم أن هذه المسألة كانت مطروحة فى ايران قبل أن يبادر مثقفو أوربا و افريقيا على الأخصّ بطرحها، غير أنّ غبار النسيان قد اعتلاها، والآن، وبعد أن طرحت فى اوربا، نرى آثارها و أذيالها تصل الى الأوساط المثقفة فى ايران كذلك!)، تلك القضية هى مسألة «العودة الى الذات» ولابد لى أن أوضح سلفاً بانكم اذا كنتم قد سمعتم بأننى أعتمد على الدين وعلى الاسلام، فاعلموا أنّ هذه الركيزة هى

ذلك الاسلام المنقح الذى أعيد النظر فيه اعادة واعية وعلى أساس نهضة فكرية اسلامية وأننى لم أحصل على هذه الرؤية الدينية من جراء جلوسى و دراستى للفرق المختلفة، والاديان المتنوعة، ثم اختيارى الاسلام باعتباره «الدين الأفضل»، كلاّ، لقد سلكت سبيلاً آخر فى الحصول على هذه الرؤية، واننى اذ أعلن هنا عن هذا السبيل ليس من أجل أن يلبّى دعوتى ويتبنّاها المثقفون والطلبة المعتقدون بالدين فقط، حيث يستطيع كل مثقّف واعٍ مستقلّ يريد أن يخدم مجتمعه، ويشعر برسالته الثقافية تجاه جيله وتجاه عصره، سلوك نفس السبيل الذى سلكته أنا وخلاصة القول أننى لم أطرح مسألة الدين بهذا الشكل فى المجتمع على أساس الفكر أو العاطفة الدينية، لأنّ اعتمادى على الدين هو بشكل يستطيع فيه حتى المثقف الذى لايحمل شعوراً دينياً أن يتجاوب معى ويتخذ الدين ركيزة له بفارق أنّ اعتمادى على الدين هو ايمان منى و مسؤولية اجتماعية، وأمّا ذلك المثقف فبامكانه أن يشاركنى فى الاعتماد على الدين على أنّه مسؤولية! اجتماعية فقط.

على كلّ حال، اننا نريد هنا باعتبارنا مثقفين مسؤولين عن زماننا، وعن عصرنا، وعن جيلنا، أن نحدّد الهدف من مسؤوليتنا، ونعيّن الدور الاجتماعى المُلقى على عاتق المثقفين والخرّيجين وحملة الشهادات والمفكّرين فى المجتمع الاسيوى والاسلامى (ولا شأن لنا بما قيل، وما أصدر من تعميمات ادارية وما أُملى علينا من الخارج وأُخذ به كايدئولوجية) وذلك على أساس الشعار الذى تبنّته كافّة الاوساط المثقفة الدينية منها وغير الدينية ـ لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية ـ وكما يعتقد عمر أوزغان، وامه سهزر وفرانس فانون وأوجين يونسكو من أنّ على كل مجتمع أن يكون مثقّفاً على أساس تاريخه وثقافته، ويحمل رسالته ويقوم بدور المثقّف استناداً الى «التاريخ» و «الثقافة» «واللغة العامة»، أجل على أساس هذه الشعارات الثلاثة.

وليست قضية «العودة الى الذات» على أىّ حال شعارا رفعه المتدينون فى العالم اليوم، و انّما هى مسالة طرحها لأول مرّة معظم المثقفين التقدميين الذين ليست لديهم عقائد دينية من أمثال: امه سهزر و فرانس فانون فى افريقيا و كجوليوس نيريره و جوموكنياتا و سنقرد و سنغال و كاتب ياسين

الكاتب الجزائرى، و جلال آل‌احمد فى ايران، هولاء هم الذين رفعوا شعار «العودة الى الذات» وكما نرى ليس لأحد منهم شخصية دينية، بل انهم من أبرز وجوه النهضة الثقافية العالمية، ومن الزعماء المناهضين للاستعمار فى العالم الثالث، وهم كذلك محطّ رضى وقبول كافة الكتل والاتجاهات.

اذن، واستناداً على هذه الدعوة، نقوم بطرح القضية هنا فى ايران وفى هذا المجتمع، وهذا الجيل وهذا العصر الذى نعيشه مسؤولين عنه، وعلى هذا الأساس وعندما تكون المسألة، مسألة «العودة الى الذات» فان الأمر يتغيّر بالنسبة لى أنا صاحب الاتّجاه الدينى، وبالنسبة لك أنت الذى ليس لديك اتجاه دينى - الاّ أن مسؤوليتنا الاجتماعية قد جمعت بيننا، وتوصّلنا الى التفاهم المشترك - و يتحول من مسألة «العودة الى الذات» الى مسألة «العودة الى الثقافة الذاتية» والى معرفة تلك الذات التى هى نحن، وفى مسار هذه الدراسات ترانا نتوصل الى مسألة «العودة الى الثقافة الاسلامية والايدئولوجية الاسلامية» ولكن ليس الاسلام كتقليد، أووراثة، أو نظام، أوعقيدة متواجدة فى المجتمع، وانما الاسلام كايدئولوجية وكايمان منح الوعى الذى أحدث تلك المعجزة فى هذه المجتمعات ذاتها. وليس هذا فى الحقيقة أن جعل الدين ركيزة، لايقوم على أساس ذلك الشعور الدينى الوراثى، أوذلك الشعور الروحانى الجافّ، وانما يقوم على أساس الشعار الثقافى المطروح لدى جميع المثقفين فى العالم، وعلى أساس تلك القضية التى يتناولها مؤلف كتاب «المسيح المصلوب ثانية» (لقد ترجم هذا الكتاب الى الفارسية، واننى أوصى أصدقائى جميعاً بقراءته). وعلى أساس ذات الشعار أقول أنا فى ايران «الحسين الشهيد ثانية» أجل، اننى أودّ أن أوضح هنا هذا واقول: «العودة الى الذات»! طيّب هذا شعار الكل وحسن للغاية، وهو شعار امه سه‌زر - سواء فى ايران أو فى افريقيا، وشعار-فرانس فانون-فى‌جزائر آنتيل فى امريكا اللاتينية. ولكنّنا هنا، فعلينا أن نوضح فى هذه المنطقة الثقافية والتاريخية والجغرافية موضوعاً آخر، والاّ سوف يظهر شعار «العودة الى الذات» شعاراً غامضاً، ومجملاً، وذهنياً. كما نراه قد ظهر بالفعل اليوم كشعار تافه ينفى أصالة الثقافة لدى الانسان فى العالم، بغية توطيد الأصالة المطلقه للقيم الغربية.

ويريد الغرب منذ القرن الثامن عشر، وبمساعدة علمائه في الاجتماع، ومؤرخيه، وكتابه، وفنانيه وحتى الثوريين ودعاة الانسانية فيه، يريد أن يفرض على العالم أطروحة تقول: ان الحضارة هي واحدة، وهي تلك التي صنعها الغرب وقدمها للعالم، ولابد لكل من يريد أن يكون متحضّراً أن يستخدم ويمارس الحضارة التي نصنعها نحن له! واذا ما أراد رفضها فسيبقى وحشياً ولا مناص. ويقول الغرب كذلك: ان الثقافة هي واحدة، وهي تلك التي تدعى بالثقافة الغربيه ولابدّ لكل من يريد أن تكون له ثقافة في القرن العشرين، أن يشتري! الثقافة الغربية تماماً كابتياعه للسلع الغربية، ولابدّ لكل من يريد أن تكون له ثقافة وكل من يودّ أن ينمي في نفسه القيم الثقافية لابدّ له أن يرضىٰ ويتقبّل القوالب التي يقدمها له الغرب في هذا المجال، تماماً كمن يبتاع جهازاً للتلفزيون من صنع الغرب ويحمله الى بيته، اذا شاء أن يكون له جهاز للتلفزة. والاّ فسيبقى بلاثقافة، وبلاحضارة، أي انه سيبقى وحشياً. اذن امّا أن يكون متحضّراً على الطريقة الغربية وامّا ان يبقى وحشياً، هذا هوالمصير المحتوم! وليس أمام الكلّ الاّ اختيار أحد هذين الطريقين.

وقد بذل الغرب كل جهده خلال القرنين الاخيرين من اجل ايجاد هذا الايمان بالغرب، ومن أجل ايجاد عدم الايمان بالذات، وعلى هذا الأساس نرى السيد ـ موريس طورز ـ يقول: انّه لايوجد في افريقيا شعب الجزائر، وانما يوجد شعب في حالة الصيرورة. انه يريد أن يتجاهل حضارة شمال أفريقيا العظيمة التي نشأ وترعرع فيها منذ عدة قرون أعظم فيلسوف، وأعظم عالم للاجتماع في العالم، لابل مؤسس علم الاجتماع وحين كانت شمال افريقيا هذه تتمتع بمثل تلك الحضارة العظيمة، كان للغرب «شَنتون دي لورَن» وكانت آدابه تتلخص في الغناء الشعبي للقوافل المسيحية الذاهبة لزيارة الأماكن المقدسة وكانت اسبانيا آنذاك هي المنطقة الغربية الوحيدة التي توجد فيها الحضارة، غير أن حضارتها تلك كانت مأخوذة من المغرب الاسلامي. أجل كانت اسبانيا تقلّد شمال افريقيا في كسب الحضارة. ولكنهم يريدون اليوم انكار جميع الحضارات العريقة، لفرض القوالب والاطارات التي يصنعونها هم أنفسهم على العالم، ولجعل هذاالنهب وهذهالمجازرتسود جميعالشعوب

ابتداءً من الصين، ومروراً بايران، وانتهاءً بمصر، حيث كان لكل منها حضارات كبرى فى التاريخ.

الأحادية فى الزراعة.. وفى الحضارة أيضاً!

انّ الأُحادية فى الـ «كولتور»: monoculture هى ظاهرة من الظواهر الاستعمارية لدى الغرب، فالاستعمار من حيث يتصور أنه سيّد العالم أجمع، يتخيّل له أن العالم بأسره هو بمثابة مزرعة له، ولهذا نرى أن ظاهرة توحيد المحاصيل الزراعية للدول المختلفة هى ظاهرة من ظواهر الاستعمار، فهو عندما يرى مثلاً أن زراعة قصب السكر فى كوبا، تدرّ بالمحصول الوافر، يقول ينبغى زراعة قصب السكر فى جميع الأراضى الكوبية ولايهمّه فى ذلك كون الشعب هناك يفقد الخبز ويضطرّ الى استيراد الحنطة من أمريكا، وكذلك الأمر بالنسبة للشعوب الاسلامية فى شمال أفريقيا، فبالنظر الى أن الطقس هناك مشمس دائما ويساعد على زرع العنب، فيجب اذن زرع الكروم فى جميع الأراضى والقضاء على كافة المحاصيل الزراعية الأخرى، وذلك لانتاج الخمر عن العنب.

وبالفعل تمّ ذلك، فعندما استلم الشعب فى شمال افريقيا زمام الحكم فى البلاد وجد أن أراضيه كلها قد تحوّلت الى مزارع للخمر!! على الرغم من أنهم مسلمون جميعاً لايشربون الخمرة، ولا يجدون أساسا مايأكلونه غيرها.

وكلمة «كولتور» لها معنيان اثنان: «المزرعة» و «الثقافة». وهذا التشابه اللفظى لجميل للغاية! اذ يقوم الاستعمار فى آن واحد بتوحيد نوع المحاصيل الزراعية والانتاج الزراعى فى الدول غير الغربية، وتوحيد الحضارات والتواريخ والثقافات فى العالم فكما أنه يعمل على توحيد المزارع والمحاصيل فى الدول الضعيفة بحيث انها تموت جوعاً اذا لم تبع انتاجها للغرب، انه يعمل كذلك فى حقل الكولتور المعنوى على نفى جميع المزارع الثقافية فى العالم والتى تواجدت فيها ـ على مدى قرون عديدة وخلال الآف السنين ـ المواهب البشرية والتجارب المختلفة والفنون المتنوعة، وشهدت مختلف الأذواق، والمعنويات العظيمة، والثقافات المعنوية الكبرى، وعلوم الجمال المتضاربة،

أجل يجب نفى كل هذا حتى يتسنىٰ الأمر لتراكتور الاستعمار الثقافى بالمجىء وحصد الحضارات الأسيوية والأفريقية، والايرانية وحضارات كافة المجتمعات الاسلامية، لزرع الكولتور الغربى أى الثقافة الغربية هناك فقط.

وبهذه النظرة، ينبغى على الشعوب أيًا كان عنصرها، وأيًا كان تاريخها، وحضارتها يجب عليها أن تصبح جميعاً كالجرار الفارغة تشبه بعضها بعضاً، ولاتملك شيئاً الاّ اللّهم حلقوماً مفتوحاً متعطشاً وحفرة فارغة لايصالها بجهاز الانتاج الفكرى والانتاج الاقتصادى للغرب ـ ولا بغيرها ـ وتركها تمتصّ، وتصبح عاملاً للاستهلاك، وليس للانتاج وحيث ان الحضارة تعنى الاستهلاك الغربى، اذن كلّ من يستهلك الانتاج الغربى يصبح حضارياً متمدناً، ولكى يصبحوا مستهلكين للانتاج الغربى، عليهم جميعاً أن يؤمنوا، بأن لامفهوم بعد الآن لثقافتهم الخاصّة، ولشخصيتهم المستقلّة، وأنهم غير قادرين أساساً على صنع الحضارة والثقافة ولذلك ومن أجل أن يصبحوا ذوى حضارة، فلامناص لهم الاّ قبول الادوات والقوالب، والقيم الغربية، ولهذا، وعلى أساس هذا المفهوم نرى هنا فى مجتمعنا أن الانسان يسمى حضارياً متمدناً كلما ارتفعت نسبة استهلاكه لا كلما ازداد فهمه ووعيه. فيقال مثلاً: ان طهران أصبحت اليوم أكثر حضارة على ما كانت عليه فى السابق، وقبل ثمانية عشر عاماً، لأن الناس كانوا عام ١٩٥٥م. على درجة من الانحطاط بحيث انهم لايستهلكون الاّ سبعة عشر أو ثمانية عشر من الأظافر الصناعية، امّا اليوم فقد ارتفع هذا العدد الى خمسمائة ضعف، وهكذا هو الحال بالنسبه للسلع الاخرى حيث تضاعف استهلاكها آلاف المرات.

وليست تلك الأمّهات اللواتى ترعرع فى أحضانهنّ أبطال ك ـ ستارخان ـ واللواتى كنّ يصبغن شعرهنّ بالحناء لسن بالامهات الحضاريات المتمدنات. ولم يكن ذلك الشاب الافريقى بمتمدن عندما كان يزهو ويتباهى باسمه وبكلبه وبغنمه قبل أن يذهب الاستعمار الى افريقيا. ولكنه الآن، وبعد أن ذهب الفرنسى الى هناك، نرى رئيس القبيلة وقد وُضع اسمه على سيارة غربية، ويجلس وراء مقود السيارة، ويدوس على الغاز وهو فرح مسرور لأنه أصبح متمدناً!

كان أحد السادة يقول: ان الله سبحانه وتعالى منح الغربيين المال، والقدرة، والذكاء الاّ أنه حكم عليهم بالذهاب الى المعادن، والمصانع لصنع السيارات والادوات الأخرى، لنستفيد منها نحن المسلمين!

أجل، لابد للصينى، والياباني، والايراني، والعربي، والتركي، والأسود، والأبيض، لابّد لهم جميعاً أن يتحولوا الى أشياء فارغة، خاوية لاجدوى فيها، مستهلكة، محتاجة، كل فخرها، وكل اعتزازها، وكل عظمتها، وكل تجلى انسانيتها وكل أمانيها، تتلخّص فى استهلاكها للسلع الغربية. اذن، يجب نفى جميع المفاخر والقيم الأخرى التى تتمسك بها هذه الشعوب، وهذه العناصر، وتكوّن عمادها وركائزها، حتى يصبح الأمر بشكل يفخر فيه الانسان الكبير بسلعته المعدنية، كما يجب حدوث كارثة عالمية كبرى لتفريغ جميع اولئك الذين ينتمون الى جميع الأديان، والتواريخ من ذواتهم والتفريغ من الذات هو اصطلاح فى الفلسفه الوجودية ولكن لافى وجودية ـ سارتر ـ وانما فى وجودية هيدجر Heidegger و ياسبرس Jaspers الذى هو أحد الوجوديين المتديّنين العظام واننى أعطيهما أهمية قصوى.

ماذا يعنى التفريغ من الذات؟

يقول هيدجر: ان لكل فرد وجودين: أحدهما عندما يقول «أنا» ككائن حىّ فى المجتمع، أى انه فرد من أفراد المجتمع، فلو كان مثلاً عدد سكان ايران ثلاثين مليون نسمة، فاننى أحد هؤلاء السكان وجميع الناس سواسية فى هذا النوع من الوجود. لكل منهم مقدار واحد من الاستهلاك والوزن والطول، والنتروجين وغير ذلك، وهذا هو الوجود المجازى للانسان، اما الوجود الآخر له فهو كما يعبّر عنه هيدجر هو: «الوجود الأصيل» existence authentique وتقوم الوجودية existentialisme على أساس الـ «اكزيستانس» هذا وليس ذلك الوجود البدائى الذى يملكه الجميع، اذ ان الوجود البدائى من صنع الأب والأم و بمساهمة بعضهما، أما هذا الوجود الثانى فهو مالا يملكه البعض بتاتاً، و ما يملكه البعض الآخر، وهؤلاء هم على درجات مختلفة، وهو الوجود الذى تصنعه الثقافة على امتداد التاريخ وتكوّنه، وهو الوجود الحقيقى

والانسانى للانسان. أما الوجود المجازى الاول، هو وجود عمره ثلاثون أو أربعون عاماً كما يشير الى ذلك سجلّى «أنا» اما الوجود الحقيقى أو ال «آتانتيك» فهو ذلك الوجود الذى تبلور فىّ أنا خلال عدة قرون وعلى مدى التاريخ، وعبر ما صنعه تأريخى من ثقافة وحضارة وفنّ، وهو ذلك الوجود الذى يمنحنى هوية ثقافية عند مثولى أمام الثقافات الأخرى، وأمام الغرب و امام الشرق، وأمام أمريكا، وامام أفريقيا. الوجود الثاني، هو الوجود الحقيقى الذى بفضله استطيع أن اقول «أنا» عندما اقف أمام الفرنسى أو الانجليزى أو الامريكى أو الصينى، تماماً كما يقول كلّ منهم «أنا»، ويقصد حقيقة خاصّة به، ويشير الى وجودٍ واقعى عينى، والى مميزات و قيم معينة الا وهو الوجود الذى خُلق على طول التاريخ، و تحقق فى فردٍ فردٍ من الوجودات المجازية وليست التربية والتعليم الاّ ترسيخ الوجود الحقيقى و تنميته فى الوجود المجازى والقيام بتنمية التاريخ و الثقافة فى هذه الهيا كل والهويات الاعتيادية فى المجتمع وهذه الشخصية هى شخصية «أنا» الانسان.. أى تلك الشخصية التى تميزنى عن سواى، وتحدد ابعادى أما ال «أنا» الآخر اى وجودى المجازى فهو على السواء بالنسبة لوجود الآخرين فهى على السواء كلها. و بامكانكم أن تجسّدوا فى أذهانكم شخصيات ذات وجودٍ مجازى، الاّ أنها لم تجد الفرصة بعد، لصنع وجود حقيقى لنفسها، اذ انّ الوجود الحقيقى، يُصنع على يد الانسان ذاته، وبواسطة مقومات ثقافته وتاريخه هو، والتى ينمّى الانسان نفسه على أساسها ولهذا يقول - سارتر - انّ الوجود المجازى هو من صنع الطبيعة أوالله، امّا الوجود الحقيقى فانّه من صنع أنفسنا. الوجود الحقيقى هو نفس ماهيتى أنا، وهويتى الانسانية، وشخصيتى الثقافية، وكل من تكون لديه شخصية ثقافية خاصّة به، هو انسان مستقل، منتج. والانسان المنتج هومن يصنع الفكر، ويصنع الايدئولوجية ويصنع الايمان، ويصنع الحركة، تماماً كما يصنع الآلة ودعونى أقول هنا انه لكذب أن يبلغ شعب ما مستوى الانتاج الاقتصادى والصناعى قبل بلوغه مستوى الانتاج الفكرى والمعنوى والثقافى ولو بلغ ذلك المستوى، لكان بلوغه على مستوى نوع من فرض الانتاج الغربى أيضاً وبشكل خدعة واستعمار حديث، و الاّ فالمجتمع المنتج

هوالمجتمع الذى يفكر هو نفسه، ويبدع هو ذاته، يبدع الفكرة، والذهنية، والقيم، والجمال، والفنّ، والعقيدة، والايمان، والوعى الدينى، ويصدر أحكامه التاريخية، والاجتماعيه، ويتخذ اتجاهه ونظامه الطبقى، واتجاهه الفئوى. وهذا هو المجتمع الذى يبلغ الانتاج الصناعى، والاستقلال السياسى، وانتاج رأس المال، وانتاج الحضارة المادية ولكى لا يبلغ أى جيل مستوى الانتاج الاقتصادى والصناعى يجب أولاً وقبل كل شىء سلب امكانية الانتاج الفكرى والذهنى من لدن جيله، ولكى لايبلغ أىّ جيل الاستقلال، ويقف بوجه الغرب الحاكم المطلق على العالم، ينبغى تحطيم الأسس والمقومات الأساسية لانسانيته وثقافته وهى التى تمنح الشخصية المستقلة و «أنا» الانسانية الحقيقية، وجعله فى هيئة الانسان الخاوى، الفارغ، الأنيق المظهر، والذى لاينمّ مظهره المتألّق عما يحمله فى الباطن شأنه شأن قبر الكافر المزخرف الجميل فى ظاهره والمغضوب بغضب الله عزوجل من الداخل.. ويقصد الشاعر الايرانى الشهير «مولوى» أنّ مثل هؤلاء الأشخاص يشبهون قبور الكافرين، الفخمة والمزينة بالحجر الثمين فى الظاهر، والمليئة بغضب البارى عز وجل فى الداخل، وهى عكس قبور المؤمنين التى تبدو خرائب فى الظاهر، والمستنيرة فى الداخل.

هكذا هو حال ذلك الانسان الذى يصنعه الغرب المتمدن فى الدول غير الغربية، انّه أنيق، مصفوف، متألّق لامع المظهر، أما باطنه فهو فارغ خاوٍ دونما مضمون ولامعنى.

ديالكتيكية «سوردل»:

هناك ديالكتيكية (ديالكتيكية سوردل) تبيّن الصّلة الموجودة بين الشرق والغرب فى نظام الاستعمار الثقافى، وهذه الصلة تقوم على أساس أنّ الغربى يجب أن لاينفى ثقافة وتاريخ وشخصية الشرقى، لأن الشرقى فى هذه الحالة، سيتخذ موقفاً دفاعياً. انه أى الغربى يجب أن يتصرف تصرفاً يحمل بموجبه الشرقى على الايمان بنفى ثقافته وتاريخه وشخصيته، والاعتقاد بأفضلية عنصر الغربى، أى ان عنصر الغربى من الدرجة الأولى وعنصر الشرقى من الدرجة الثانية. وان للغربى عقلا، وهو يفكر ويصنع، أما الشرقى فيجب أن يقول الشعر

فقط ويصنع العرفان. ولهذا نرى معظم المستشرقين يولون المخطوطات الصوفية أهمية بالغة، ويعيدون تحقيق كل مخطوطة عشر مرات، فـي الوقت الذى لاتزال فيه تسعة وسبعون بالمائـة من مخطوطاتنا العلمية متروكة فـي المكتبات، يبليها الزمن، وتتآكلها الفئران لايعلم أحد بوجودها. انهم يفعلون هذا، ليُفهموا الشرقى وليقولوا له: انك لا تصلح الاّ للمشاعر الذهنية المجردة وللماليخوليا والهورقليا.. وانك عندما تفيق، وتهبط من السماء الى الأرض والى الحياة، لا مناص لك الاّ اتّباع أنظمتنا، و أن تكون محتاجاً الى سلعنا.

انهم قسموا العالم الى قسمين: عالم الماديات وهو مستنقع و «جيفة» وهو للانسان الغربى، وعالم المعنويات، والابدية وماوراء الطبيعة وهذا العالم بأسره لك أيها الشرقى! هكذا قسّموا دنيا الشرق ودنيا الغرب. وليس من الصدفة أن تتواجد هذه العنصرية فى القرن العشرين، فهذه الفكرة، فكرة جاهلية، كيف تراها تظهر على المسرح فى القرن العشرين؟ انها تعود الى العرب فـي الجاهلية وقد زالت عندما ظهر الاسلام، فكيف يظهر نظام أفضلية الغرب وال «اكوسانترية» الغربية egocentrisme وال «اكسيدانتالية» occidentalisme ثانية فى القرن العشرين؟ لأن رسالة الأصالة العنصرية، والأفضلية العنصرية هى أساساً أن يفهم الشرقى أنّ عنصره من الدرجة الثانية، وأن يعتقد أنّ عنصر الغربى هو من الدرجة الاولىٰ، والغربى هو صانع الثقافة، وهنا تظهر صلة الأمّ وطفلها بين المستعمِر والمستعمَر تلقائياً، اذ يعتبر الاستعمار نفسه المدينة الأمّ، ويعتبر الآسيوى، والافريقى أطفالاً غير مهذّبين، يجب عليهم أن يتأدّبوا فى أحضان هذه الأمّ. ففى ديالكتيكية سوردل تتكون هذه الصلة، حيث تطرد الأمّ طفلها، والطفل ـ ولكى يكون فى مأمن من هجمة الأمّ، ولأنّه يخشاها ـ نراه يلجأ الى أحضان الأمّ ذاتها. وهذه هى ديالكتيكية تنفى نفسها بنفسها بما تنطوى عليه من تناقض، وتبعث على الاجتذاب وعلى الوطنية، فحين يشعر الشرقى انّه فارغ وخاو، وأنّه ينتمى الى دين منحطّ والى عنصر منحطّ وأنّ ثقافته منحطة وجماله منحطّ، وفنّه منحطّ، وأدبه منحطّ، ونظامه الاجتماعى منحطّ، وتاريخه منحطّ، وشخصياته التاريخية منحطّة، وأمجاده العريقة منحطة، وأنه لايملك شيئاً، فسيشعر تلقائياً بالعار ويجد نفسه

متّهما بحقارة وانحطاط عنصره. ومن أجل أن يبّرئَ نفسه، ويُبعد عنه هذه التهمة، يتشبّه بالغربى، ليقول بعدئذٍ: اننى لست من ذلك العنصر المتهَم، اننى مثلك أنت أيّها الغربى. أجل انّه يتظاهر بالتشبه بالغربى فى شتى المجالات، التشبه به فى مناحى العيش وفى السلوك، وفى الحركات، وفى السكنات. وفى التصرف، وفى التجمل. اذن فالتقليد ظاهرة هى وليدة ديالكتيكية سوردل، فى مجال الصِّلة بين الشرقى والغربى..

واليوم، وبعد أن انتزع الغرب من الانسان فى كل مكان، قاعدته الذاتية والثقافية، وقابليته للانتاج الذاتى وخلاقيته، وتدفّقه، وجعله كالعبد محتاجاً، وذليلاً، وملتمساً، وحقيراً، وملتصقاً بالغربى ومقلداً له.. ماالعمل؟ لقد رفع المثقون منذ خمسة عشر عاماً وكآخر تجربة ثقافية معادية للاستعمار فى العالم رفعوا شعار «العودة الى الذات». هذا صحيح، ولكن الملاحظة التى أود أن أطرحها أنا هى أن أسأل: العودة الى أيّة ذات؟ الى تلك الذات التى ينادى بها ـ امه سهزر ـ أم الى تلك التى أملكها أنا فى ايران؟ فذاته تختلف عن ذاتى أنا، ولهذا انّنا عندما نقول العودة الى الذات، نفترق عن بعضنا. أنا هنا فى ايران كمثقف ايرانى و امه سهزر ـ أو ـ فرانس فانون ـ كمثقفين أفريقيين متعلمين، ومثقف آخر من جزائر آنتيل فى أمريكا اللاتينية. فى حين اننا عندما أُفرغنا من ذواتنا كنا جميعاً وكما يقول ـ ياسپرس ـ مستغربين، ومن خريجى جامعات فرنسا نشبه بعضنا بعضاً، ذلك لاننا كنا جميعاً قد اتجهنا الى الغرب واصبحنا مقلدين مستغربين assimilé أما الآن، ونحن نريد العودة الى قواعدنا الثقافية فلا بدلنا أن نفترق ويذهب كلّ واحد منا الى داره والى بلاده. اذن فعندما نقول نحن المثقفين: «لِنعد الى ذواتنا»، وكلّنا متفقون على هذا الأمر، فلابّد لكل واحد منّا أن يحدّد لنفسه انّه الى أية ذات يريد أن يعود؟ اى يحدّد الذات التى يريد العودة اليها. (وهذه مسألة لم تُطرح بعد فى ايران). اذ يختلف شعار المثقفين الافريقين فى العودة الى الذات عن شعار مثقفى المجتمع الاسلامى ومثقفى ايران فى هذا المضمار. فالاستعمار عرض الثقافة على افريقيا بشكلٍ، وعلى البلدان الاسلامية فى الشرق المتمدن، وعلى المجتمع

الايرانى ـ وهو مجتمع شرقى متمدن، واسلامى متمدن فى آن واحد ـ بشكـل آخر وان ماطرحه مثقفونا المعاصرون خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة هو تماماً انعكاس لاطروحة ـ امه سهزر ـ و ـ فرانس فانون ـ وأمثالهـم. فـى حين لايعالج هذا الانعكاس داءً لنا على الرغم من اعتقادى الشديد بالاطروحة ذاتها، ذلك لأن الغربى قد تحدّث معى أنا المسلم الايرانى الشرقى بطريقـة، وتحـدّث مع ـ امه سهزر ـ الأسود الأفريقى بطريقة أخرى، انه يقول للعنصر الأسود: انّ عقلك لايستطيع صنع الحضارة لأنّ العناصـر هى على نوعين فـى العـالم، نوع صانع للثقافة، ونوع غير صانع للثقـافة ويجـب أن يُسـتخدم العنصـر الاخير (اللاصانع للثقافة) كالعبد وكالاجير لخدمة العنصر الأوّل (صانع الثقافة). ولكنه لايقول لنا انّكم لستم بصانعى الثقافة، بل بالعكس انه يجاملنا كثيراً، ويحشّمنا حتى نكاد نذوب خجلاً. فقد جـاء الغـربيون الى الشـرق، وبذلوا جهـداً كبيراً، وتحملّوا العذاب وقضوا العمر فـى دراسـة النقـوش الأثرية واكتشـاف الآثار التاريخية. لقد طُبعت أفضل وأحسـن آثارنا و مخـطوطاتنا فـى باريس و لندن و غيرها، وعرضـت على العـالم كأعظم الآثار التاريخية، وللسـيّد جيب Gibb موقوفة لطبع مخطوطاتنا القديمة، انهم يرون فى تعـظيم ماضـينا ثواباً اذن اننا لم نسـتحقر، فـالغربيون يبجلوننا دائماً، و يسـتندون الى ماضـينا أكثر منّا، انه نفس الغـرب الذى يقـول للأسـود المثقف: ليس لك ماضٍ، وانّك كنت عبداً دائماً، عبداً للعرب أو للقبط، والآن أصبحت عبداً للغرب. اذن ماهو معنى العودة الى الذّات؟ الغربى يقول للافريقى: انك لاتملك حضارة، ولكنه يقول لنا عكس ذلك، يقول لنا لقد كانت لديكم حضارة كبرى. يقول له: انك غير قادر على صنع الثقافة، ويقول لنا انكم صنعتم الثقافة، اذن نفـى ثقـافة الماضـى بالنسـبة للأفريقى، وشوّه ثقافتنا وماضينا، والتشويه أسوأ من النفى، ليتهم قالوا لنا: انه لم يكن لديكم دين تقدّمى فـى الماضـى، ولا كتاب ولا علم ولا أدب، ولا أىّ شىء آخر، لنثبت نحن لجيلنا بأنّنا كنا نملك كل شـىء، أجـل، انّهـم لم يفعلوا هذا.

انّنى اذ أقول الماضى، لا أقصـد الماضـى الذى أصـبح مقـابر، وانّما أعنى الماضى الموجود حالياً، الماضى الذى هو كلاسيكيّة حيّة، والذى نشعر به الآن

ونعيش به، الماضى الذى يصنع شخصيتنا الثقافية، والماضى الذى نستند اليه، أجل أقصد ذلك الماضى الذى يصوّرونه فى عينى مشوّها ومظلماً، ومنحطاً وكريهاً، وقبيحاً. انّ الغربى يقول لـ - امه سهزر - انّكم لاتملكون شيئاً ويقول لى: انكم تملكون كلّ شىء، غير أنه يصوّر لى ذلك بشكل كريه، بغية أن أهرب من تلك الصور الكريهة الى أحضان الغربى نفسه. لماذا ليس للشاب الافريقى قضية بأسم الهروب من الرجعية، الهروب من الماضى، الهروب من القديم؟ المثقف الأسود يزهو بكل بساطة بكونه أسود، وبكونه أفريقياً، وحتى بكونه قبلياً فى حين ان ماضى الافريقى ليس ماضياً يبعث على الفخر والزهو والاعتزاز. أما المثقّف وحامل الشهادة الايرانى المسلم فى الشرق، لايشبه الايرانيين بالمرّة، ولايشبه المسلمين بتاتاً انّه يستهزأ بكل شىءٍ ويتظاهر بالغربيّة.

كان يجلس بجانبى فى الطائرة مرة، شخص سألته أن يعطينى صحيفته لأقرأها. فلا حظت أن لهجته غربيّة لدرجة أنه لم يستطع التحدث معى، فقلت فى نفسى لاشكّ أنه نسى الفارسية لطول اقامته فى الخارج، غير أننى وجدته لايجيد اللغة الغربية وذلك عندما طلب منه أحد المسافرين الغربيين شيئا ما. انظروا مدى هذا التظاهر. فكثيرا مارأينا أشخاصاً ذهبوا الى اوربا لعامين أو ثلاثة أعوام، وعادوا يتباهون بنسيانهم اللغة الفارسية، وأنا أقول، لمثل هؤلاء: أيها الاحمق، مادام لديك مثل هذه القابلية لتنسى خلال ثلاث سنوات، لغةً تعلّمتها فى خمس وعشرين سنة! فكيف تتعلم اللغة الخارجية خلال ثلاث سنوات؟ لم هذا التظاهر؟.. تراه يخشى أى شىء؟ انّه يخشى نفسه، انه يكره ذاته، ويكره كل من ينتسب هو اليه، وكل من يذكره بذاته المحقّرة والقبيحة وهو يشكر كل من لا يذكره بذاته، ويميل اليه ويزهو بصداقته، أو بالأحرى بالتظاهر بصداقته لأنه يجهل العنصر الذى ينتمى اليه صاحبنا.

ترى، لماذا تبدو هذه «الذات» قبيحة، كريهة فى نظرنا، حيث يتهم جيل الشباب كل من ينتسب اليها وكل من ينتسب الى ثقافتنا والى ماضينا، والى ديننا سواء بالاعتقاد أو بكونه عالماً اخصائيا و باحثا.. ولماذا يتّهم جيل الشباب

المثقف، كلٌ مثقفٍ يطرح هنا شخصيةً كشخصية أبىذرّ الغفـارى (وهى شخصية فذة لو طرحت اليوم فى اوربا، لاعترفت بها القوى التقدمية الاوربية كشخصية ثورية تقدمية عظيمة). انّهم يتّهمونه بالتمسّك بالقديم البالى أمّا اذا قام هذا الشخص نفسه بنقل أغانى الموسس اليونانية ـ بليتيس ـ مثلاً الى اللغة الفارسية أصبح شخصية عصرية تقدمية مثقّفة.

لماذا يقضى جيل المثقفين المسؤول وصاحب الايدئولوجية، والذى يفكّر بمصير مجتمعه ويشعر بالمسؤولية الاجتماعية والطبقية، لماذا يقضى حياته بقضايا كالشعر الحديث، والشعر القديم، والفنّ للفنّ، أو لغير الفن، او بالسيد يونسكو أو السيد جوزوئه دوكاسترو؟

فليست هذه البحوث التى يقوم بها مثقفنا بحوثاً اجتماعية، وانما هى أقذر هيروئين يتسرّب ثانية الى دم هذا الجيل، لماذا يتظاهر هذا المثقف المسؤول الذى يعتبر نفسه ذا رسالة وذا مسؤولية، لماذا يتظاهر بقراءة آثار بكت فى حين أن ـ بكت ـ ليس الاّ صيتاً كاذباً انه ذات العامل المنوّم، الذى حقنوا به دم الايرانيين فى القرن السادس والسابع، ليسمموا به دمائهم، وهاهو يرد اليوم من الغرب بشكل العوبة بكت، يتظاهربها مثقفنا ذو الايدئولوجية العلمية والطبقية. كل ذلك لأن بكت هو انسان لايمتّ لنا بصلة، أجل لايمتّ بى، ولايمت بذاتى تلك بصلة، أما أبوذر الغفارى فلابد من الهروب منه! لأنه ينتسب الينا أنفسنا ولانه ينتسب الى تلك الذات، ناهيك انه رجل ثورى من المنطلق الانسانى والاجتماعى و حتى الطبقى، وان ركيزته، ركيزة طبقية. هذا ما قام به الغربيون، لقد شوّهوا بالنسبة لنا ونفوه بالنسبة للافريقى.

لقد انعقد مرة فى مشهد مؤتمر للتعليمات الدينية حضره معلمو الدين فى كافّة المدارس و جميع المدن وطلبوا منى القاء كلمة فيه، فقلت لهم: اننى سأذكر لكم أولاً الموضوع الذى سأتناوله فى كلمتى، فاذا أعجبكم فسأتحدث، فتساءلوا ماهو ذلك الموضوع؟ قلت: انه يدور حول اقتراح لوزارة الثقافة، وهو اقتراح يتيسر تنفيذه بكل سهولة، ولايحتاج الىاخصائيين،أو الى ميزانية، فى الوقت الذى يعتبر فيه أعظم خدمة للاسلام، هذا الاقتراح هو حذف الدروس الدينية من مناهج المدارس الايرانية، واستبدالها بالرياضة لأنه لولم يكن هناك

شيء بهذا المعنى، لتيسر القول لكل فتى وفتاة يُنهى دراسته ويتخرج أن الدين هو كذا، وأن الرؤية هى كذا، وأن الوعى هو كذا وانهم سوف يتفهمون الأمر كمسألة جديدة أما حين يطرح موضوع الدين بهذا الشكل...؟

اننى كنت أبحث مرة فلسفة الامامة فى علم الاجتماع وذلك فى كوليج دوفرانس و موضوع فلسفة الشيعة فى كنيسة الجوزئيت فى باريس، بعندما انتهى بحثى فى الكنيسة، طلب منى الحاضرون هناك أن أستمر فى البحث وبالفعل استمر الحديث حتى الصباح. وعندما طرحت موضوع الامامة فى جو جامعى ككوليج دوفرانس كان جميع المشتركين فى الجلسة وهم من الماركسيين أو الاشتراكيين أو الوجوديين او الكاثوليك أو المتدينين، أو العلمانيين يتفهّمون ويدركون الموضوع كفلسفة لعلم الاجتماع والسياسة. أما عندما أتحدث فى المجتمع الدينى الايرانى، فيكون الأمر عكس ذلك تماماً. بصورة لو كان الحديث فى جامعة طهران، فسوف أستطيع التركيز على الدين أكثر مما لو كان فى جامعة مشهد (مدينة مقدسة) ولو كان الحديث فى كلية الهندسة فسوف أستطيع التركيز على المسائل الدينية وانهم سيتفهمون الموضوع أكثر مما لو كان فى كلية الآداب أو كلية الشريعة!

انّنى عندما ذكرت فى حديثى فى جامعة كوليج دوفرانس، فى جامعة سوربون أنّ بطل الثورة فى كربلاء هو رجل وفىّ هكذا، وقام بمثل هذه الأعمال، وأدّى دوره هكذا، وعاش هكذا واستشهد برجولة هكذا، صفقوا لى لأنّ هذا الموضوع لايوجد فى أذهانهم مسبقا بشكله المشوّه أما فى أذهان هؤلاء فى المجتمع الاسلامى فيوجد مشوهاً و ممسوخاً.

وتوجد نفس الخلفية الذهنية المشوّهة، بالنسبة لثقافتنا ليتها لم تشوّة، وليت الأوربى قال لنا انكم لاتملكون ثقافة ولا آداباً ولا عرفاناً ولا حضارة، ولادينا. وحينئذٍ كان بامكاننا أن نكتشف ونعيد جيلنا بكل احتياجاته وبكل فهمه، وبكل وعيه، الى الذات، أما الآن، فاننا نشم رائحة كراهية تلوح فى الأعين وفى المشاعر وفى الأذهان ونحن بصدد الحديث عن الذات، واننا نهرب نحو المثل الغربية. ولهذا فان امه سهزر يجب أن يقول: لِنعد الى ذاتنا، أما أنا فينبغى أن أتساءل: أى ذات؟ هل هى تلك الذات المشوهة، التى عرضت علينا؟ كلاّ،

لايمكن العودة الى مثل تلك الذات. انها التمسك بالتقاليد، والتمسك بالقديم البالى، وانها الرجعية الحديثة، أو لاتعلمون ان العودة الى الذات هى موجودة الآن فعلاً؟

ذهبت مرة لزيارة أحد السادة العصريين للغاية والذى كان قد عاد الى الذات بدوره! رأيت هناك انه قد وضع جلّ الحمار! فى مدخل غرفة الاستقبال فسألته: أيها السيد المحترم، هل هذا هو معنى العودة الى الذات؟. لماذا وضعت جلّ الحمار ها هنا، اذ ينبغى عليك وضعه أمام غرفة النوم! نعم، هذه العودة هى عودة الى الذات على الطراز الأمريكى، فمنذان جاء الغربيون الى هنا، وأخذوا يبتاعون جل الحمار هذا وهذه الخرز، ويعلقونها على أعناق نسائهم.. اكتشفنا نحن أنفسنا!! انظروا الى هذا الاستحمار.. الاستحمار الحديث.

اذن الى أىّ ذات نعود.. أىّ ذات؟... هل نغرق جميعاً فى مفهوم الانسية المطلق الوهمى؟ Humanisme الانسية و الأممية Internationalisme هى اليوم أكذوبة تهدف الى نفى شخصيتنا الثقافية، ونفى وجودنا جميعاً، وتريد نفينا فى انسية كاذبة وهمية لاوجود لها. فأصالة الانسان تعنى مشاركة ومساهمة كافة الشعوب فى مفهوم واحد، وفى حقيقة واحدة، أى مشاركة الانسان الصفراليد مع الانسان ذى رأس المال. اذا شاركنا نحن الفارغين من الذات، الفاقدين للثقافة معك أنت الذى تملك الوجود بأسره، فليست علاقتنابك الاّ علاقة السيد بالعبد، علاقة يشكّل الانسان الفارغ، والعامل، والأداة، أحد طرفيها والانسان الثرى، صاحب رأس المال الطرف الآخر. اذن، الغربى وحده هو الموجود، وكما يقول سارتر، لايوجد فى العالم سوى خمسمائة مليون انسان فقط. اما الباقى، أى المليارات والخمسمائة مليون انسان، فهم محليون وحسب مايقوله المستعمرون انّ المحلى يعنى الشرقى والانسان يعنى الغربى!

واذا ما أراد الشرقى ـ انطلاقاً من هذا المفهوم ـ أن يشترك فى هذه المساهمةعلى أساس الانسيةوعلى أساس أصالةالانسان الغربى، فسيعرض نفسه للذوبان فى نظام وهمى شاعرى مبنّى على الحب الكاذب المزعوم للبشرية، وهذا انكار لشخصيته هو ولكيانه ولأصالة ذاته، وما دمنا نحن محليين وأشباه أوادم وهم أى الغربيون أوادم صدق حسب ما يقولون، فان أىّ نوع من

المشاركة البشرية معهم تعتبر خيانة بحق وجودنا نحن، وينبغى علينا أن ننفصل عنهم، ونحذر منهم، لان علاقتهم بنا حسب هذه المعادلة، هى علاقة المستعمر بالمستعمر، وكيف يمكن أن تكون مثل هذه العلاقة؟ انها علاقة بين ذلك الذى يمتصّ الدم وبين الممصوص دمه. وبين ذلك الذى يُنتج فقط، وذلك الذى يجب أن يستهلك، وبين ذلك الذى يجب أن يتكلم، وذلك الذى ينصت. وبين ذلك الذى يجب أن يتحرك، وذلك الذى يجب أن يقلّده فى تلك الحركات انها علاقة بين قطبين متناقضين اذن، انها فى الحقيقة ليست علاقة، وانما ارتباط كاذب لاوجود له، يشبه فيما يشبه علاقات أخرى، مثل العلاقة المزعومة بين الافراد المنتمين الى العنصر الواحد، أو علاقة الاخوة الوطنية، وغير ذلك، وكلها علاقات كاذبة يراد اقامتها بين القطبين اللدودين المتخاصمين والمتنازعين، وذلك لصالح القوى المقتدرة، وعلى حساب الضعفاء وهى ليست علاقة، ولو كانت، فانها علاقة عدائية لانّه من البديهى أن يتوحد الدم بين العلق الذى يمتص الدم وبين الانسان الذى يُمتص دمه ولكن وحدة الدم هذه، هى وحدة عدائية بين عدوين اثنين.

على أىّ حال، هذه العلاقات، هى علاقات كاذبة، يهدف المستعمرون اقامتها بين القطبين فى العالم: القطب الاستعمارى، والقطب المستعمر وذلك باسم العنصر، و باسم الوطنية و باسم الدين. ولكن ترى، كيف يمكن لذلك الذى يعتبر نفسه انساناً ويعتبرنا محليين، ولذلك الذى يحسب نفسه العقل ويحسبنا الاحساس والشعور، كيف يمكن له اقامة علاقة معنا؟ ان برتراند راسل، هو النموذج لهذا ـ اننى لا أتحدث عن شخص استعمارى، أو استغلالى فى العالم، وانما عن شخصية تحررية شهيرة!ـ انه يقول: النفط هو ملك الحضارة وانه ليس ملكا لهذا وذاك أو للقبيلة الفلانية، أو الشعب الفلانى. انه ملك الحضارة، ملك الصناعة، ملك البشرية. ترى ماذا يعنى هذا فى النهاية؟ انه يعنى انّ النفط هو ليس ملكاً لكم أيها المشارقة المتاخرون! انه يعود لذلك الذى يستطيع أن يتصرف به لصالح البشرية هل تراكم قادرين على ذلك؟ كلاّ.. اذن انه ملك لنا نحن المتحضّرين. نعم، هذه هى علاقتنا البشرية الأومانيّة مع الغرب. اذن الى اى ذات نعود..؟

فلو عدت الى ذاتى العنصرية، فقد أصبت بالراسية (racisme) والفاشية، والجاهلية القومية العنصرية، وهى عودة رجعية، وانا لاأريد ان أكرّر قول الشاعر «بأن الفن لدى الايرانيين فقط.. وانما أريد أن أقول: اننى انسان، فقط» وقد شهد تاريخى باننى فنّان وصانع للفن. أريد أن أقول: اننى انسان وصانع للثقافة والنبوغات. اذن فالعودة نحو العنصر هى عودة راسية وفاشية ونازية، ونوع من الشوفينيه الجاهلية الحمقاء، وهى عودة لنوع من تعصبات العرق المحلية الضيّقة وعودة لقيود التمسك بالتقاليد الضيقة، وهى عودة الى الجمود القومى والقبلى، اننا لانريد العودة الى العنصر، ولا نريد العودة الى الفواصل والفوارق التقليدية، القديمة، ولا نريد دفع الانسان نحو عبادة التراب والدّم. فلقد جاء مائة وأربعة وعشرين الف رسول ليدعو الانسان المختال الفخور الى عبادة الله مظهر الجمال المطلق فلم يستجب فهل ندعوه ثانية اليوم كمثقّفين الى عبادة التراب؟... فأىّ دعوة هذه؟ هل هى دعوة للعودة الى الذات..؟ كلا! هل هى عودة لذاتنا الثقافية المعنوية الانسانية التى تبلورت فى دين وثقافة وحضارة خلال مرحلة خاصة من التاريخ؟ ان لدينا ذاتاً أثرية عريقة تعود الى عصر الأخمينيين والساسانيين والأشكانيين والعصور السابقة لها، هل ياترى نعود الى تلك الذّات؟... أرجوكم الانتباه بدقّة الى هذا الجزء من حديثى، لأنه آخر مالدى من كلام.. والمسألة حساسة للغاية. تلك الذات هى الذات الاثريّة القديمة التى سجّلها التاريخ، والذات التى وقفت القرون الطويلة حائلاً بيننا وبينها، ومزقت القرون الطويلة وشائجنا بها.

فذاتنا الأخمينية الأثرية القديمة، هى ذات بامكان المؤرخين وعلماء الاجتماع، والعلماء، والأثريين اكتشافها فى طيّات التاريخ، وقراءتها وتفهمها، الاّ أنّ شعبنا لايشعر بتلك الذات كذاتٍ له، ولا تعيش شخصيات وبطولات ومواهب وامجاد وأساطير تلك العهود بين الناس هاهنا اليوم ولا تتحرك ولاتنبض. اذ جاءت الحضارة الاسلامية وأحدثت فجوة بين ذاتنا فاصبحت لنا ذات ماقبل الاسلام وذات مابعده، وباتت الذات التى تعود الى ماقبل الاسلام، قابلة للدراسة والرؤية فى المتاحف والمكتبات فقط وعلى يد العلماء والاخصائيين، أما عامّة الناس من أبناء شعبنا فهى لاتتذكر شيئاً منها، انظروا

الى الألوح والنقــوش والآثار التاريخية المتواجــدة اليوم بين الناس، فما هو شعور الناس تجاهها؟... وكيف يعرفونهـا؟ منهم من يقول: ان الجن هو الذى كتب تلك الألواح والنقوش! وفـى هذا دلالة واضـحة على انعــدام وجــود أيّة علاقة بين الناس، وبين تلك الآثار التاريخية.

وخلاصة القول أن العودة الى الذات التاريخية التى ندعو اليها، ليســت عودة الى التمسك بالماضـى، والى الآثار البالية، والى الألواح والنقـوش، والى جـلّ الحمار، وانما هى عودة الى الذات الموجودة بالفعـل فـى نفس وفــى ضــمير المجتمع، والتى بامكـان المثقف أن يسـتخرجها ويعـالجها من جــديد، كمادة وكمصدر للطاقة، كى تحيىٰ، وتنبض وتتحرك ثانية، وانها عودة الى تلك الذات الحية وليست هذه الذات، هى الذات الأثرية القائمة على أساس هياكل عظمية بالية، و انما هى الذات القـائمة على أسـاس شــعورنا العميق بالقيم المعنوية والانسانية لدينا و بالروح والقابلية المتواجـدة فـى فــطرتنا والتى أغفلنا عنهــا الجهل والانقطاع عن الذات وتركها الانجذاب نحو الآخرين مجهولة، ولكنهـا لاتزال حية تنبض بالحـركة والحياة، وليســت هى كلاســيكية علم الآثار الجامدة، أجل انّ هذه الذات تتدفـق حيوية من صـميم العـامة، فما هى ياترى هذه الذات؟.. هل انّها الذات الدينية؟ والذات الاسلامية.. وأىّ اسـلام؟.. أىّ دين؟ واقول هنا أجل، ودون تأمل أتساءل اى تشيع؟.. وأى دين؟..

نحن نعلم أن ذاتنا الثقـافية هى تلك الذات التى تجلّت فـى العـالم كثقــافة عظيمة، وذلك من خلال جامعاتنا و آدابنا وعلومنا وأمجادنا وتاريخنا وحضـارتنا، ومواهبنا وقابلياتنا المتنوعة فى مجال الفنون العسكـرية والرياضـيات والعلوم، والنجوم، والآداب، والعرفان فى السنوات الألف أوالالف والمائة سـنة الاخيرة الماضية، ولهذا، واذا ماواجهـت أوربيًّا منتميا الى نهضـته الأوربية أسـتطيع أن أقول له: اننى انسان أنتسـب الى ثقـافة اسـلامية كبرى، وهاهى الشـخصيات والوجوه، وهاهى الحضـارة والقـابلية على الخلق والابداع، والخـلاقية، كلهـا لدىّ، ولدى حضارتى. ولكن المسألة هى أنه: أىّ اسلام؟.. وأى دين، هل انه ذلك الاسلام الموجود فعلاً؟.. الاسلام الموجـود فـى صـميم المجتمع بشكله الرتيب اللاواعى؟ فالعودة اليه تحصيل للحـاصل لانه هومايعيشــه الناس الآن

وما يعملون ويؤمنون به بدون جدوى. بل هو مايشكـل أحـد عوامل جمودهم. وأحد عوامل التمسك بالتقاليد، وبالجهـل، وبالماضـى، وبعبادة الفـرد، وتكـرار المكررات. فالشيء الموجود حالياً باسم الدين لايسلب من الانسان مسـؤولياته الفعلية فحسب وانما يجعله لايشـعر بكـونه كائناً حياً فـى هذه الدنيا، وهو دين غير قادر على تبيين الحسـاسيات والمشـاكل للناس، ولهـذا نرى أنّ فـرداً ما يكتب من مسافة الف كيلومتر ليقول: سيدى لدىّ مشكلة عظيمة لاأبرح أفكـر فى معالجتها منذ عدة أيام دون أن أتوصل الى حلّها، فالرجاء منكـم أن تجـدوا حـلاً لمشكلتى هذه، والآن انظروا الى مشكلته تلك، ماهى أبعـادها؟.. انه يقول: لقد كان آدم وحواء كما نعتقد أول انسانين خلقهما الله عزوجلّ وان باقى أبناء البشر قد توالدوا منهما، طيب هنايبرز هذا السؤال وهو كيف تزاوج النسـل الأول لآدم وحـواء وكانا أخـوة من أب واحـد وأمّ واحـدة؟ هذه هى المشكلة وكانها مطروحـة الآن، وكان أبناء آدم وحـواء قـد ذهبا تواً الى مكتب تسـجيل الزواج، وأن مسؤول المكتب أبى التسجيل فاشكل الأمر!

أجل، انه نفس الدين الذى حـوّل المسـائل والأفكـار، والتفكير من مرحلة ماقبل الموت الى مرحلة مابعد الموت ولاشأن له بهذه الدنيا، وانطلاقـاً من هذا الدين يقوم الانسان بكل أعماله من أجل الآخرة، ولايشعر بأىّ واجب عليه فى هذه الدنيا، لا بالنسبة لتنمية نفسه، ولا بالنسـبة للحياة الاجتماعية ولا بالنسـبة للقيام بمسـؤولياته الأخـرى هذا هوالدين الذى يكـرهه كل مثقف له وعى اجتماعى، ويهرب منه، وها اننى أقـول كلمة واحـدة وهى أن اسـتنادنا هو على ذاتنا الثقافية الاسلامية وينبغى علينا أن نرفع شعار العودة الى هذه الذات. لأنها أقرب الينا من أى شىء آخر وانها الحضارة والثقافة الحية الوحيدة الآن، وانهـا الروح والحياة، والايمان الوحيد الموجـود فـى صـميم المجتمع، هذا المجتمع الذى يجـب على المثقف أن يعمل فيه، ويعيش فيه، ولكـن ينبغـى الخـروج بالاسـلام من شكله الرتيب وتقـاليده اللاواعية التى تشكـل أكبر عامل للانحطاط، الى اسـلام تقـدّمى، مُتحـدٍّ ومثير للوعى، ويجـب أن يُطرح كايدئولوجية تبعث الوعى، وتنوِّر ليستقيم هذا الوعى الذى تقوم عليه مسـؤولية المثقف فى العودة الى الذات والبدء من الذات، سواء كان ذا اتجـاه دينى أم لم

يكـن، على أعمق الأسس لواقعنا المعنوى، وشـخصيتنا الحقيقية الانســانية الحية المتواجدة فى صميم المجتمع، وليتغذّى من رأس المال هذا ويقف على قدميه، وفى ذات الوقت، وبعملية للتبديل يجب أن يخـرج الاسـلام من شكله التقليدى الاجتماعى، الى ايدئولوجية، ومن شكله كمجموعة للمعـارف العلمية التى تُدرّس الى ايمان يمنح الوعى الذاتى، ومن شكله كمجموعة الشــعائر والعلامات والأعمال التى يقام بهامن أجـل ثواب الآخـرة فقـط الى أكبر قـوة تمنح الانسان قبل الموت المسـؤولية، والحـركة، والاندفـاع للتضـحية، والى عامل عظيم يسـتخرج لنا الوعى والحـبّ من صــميم هذا المجتمع المثقف، ويأتى فى هذا الجيل بتلك المعجـزة البروميثية، ليحقّـق أخيراً وفـى ظـل هذه الطاقة ذلك الاعجاز الذى هو وليد الوعى والايمان، ويتحوّل الجمود فجأة الى الحركة، والجهل الى الوعى، وهذا الانحطاط الذى دام قروناً الى قيامٍ وحركة جيّاشة متفجّرة. وهكذا وبهذا الشكل يعود المثقّف ـ سـواء كان ذا اتجـاه دينى أم لم يكن ـ الى ذاته الواعية الانسـانية الحيّة القـويّة ليقف بوجـه الاســتعمار الثقافى الغربى ويوقظ بالدين مجتمعه الذى يُنوِّم بواسطة الدين نفسه ويدفع به الى الحركة، ويقف على قدمى الانسـان المنتج للمعنويات ويظهـر كجيل يعتبر استمراراً لحضارته، وثقـافته، وشـخصيته المعنوية وكانسـان بشكـل بروميثية يأتى بنارالله الى الأرض.

* * *

متطلبات انسان اليوم

أيها الطلبة الأعزاء، فى هذه الليلة التى أتحدث فيها اليكم لأوّل مرة، وفى هذه الفرصة التى أتيحت لى لتبادل الفكر مع أصدقائى فى هذا المكان لأول مرة أودّ أن أتناول قضية من أهم القضايا التى تشكل الأساس لجميع القضايا، ولكافة العقائد، ومختلف الايدئولوجيات المتناقضة التى من الممكن أن تحملوها الآن، أو تلك التى ستختارونها فى المستقبل، وهى كذلك أساس كل اسلوب وقع أو سيقع عليه اختياركم فى التفكير والايمان والحياة. تلك القضية التى باتت أكبر لغز، فى القرن العشرين لاسيما بعد هزيمة العلم فى الحضارة العلمية الجديدة، والتى أوجدت أكثر الأزمات حساسية، حيث اقترن اسم قرننا باسم تلك الأزمة وهذه الأزمة هى أزمة «الانسان» وهذا اللغز هو «الانسان نفسه».

وقد أثار العلم خلال القرون الأخيرة، وبعد انتصاره على القرون الوسطى، وفى المرحلة المعروفة بمرحلة «الاسكولاستيك» وبعد انتصاره على الدين السائد فى الغرب خلال القرون الوسطى، وانتصار «السيانتيسم» وخاصة فى القرن التاسع عشر وكذلك بعد الانتصارات والنجاحات الباهرة التى حققها العلم فى كشف المجهولات الكثيرة، والتى لايزال يحققها فى يومنا هذا، أثار أكبر سؤال، وأوجد أكبر لغز ألا وهو «لغز الانسان ذاته».

ان أزمة الفلسفة الجديدة هى فى الأساس أزمة «معرفة الانسان»، وليس من الصدفة أن نرى مختلف الايدئولوجيات فى القرن التاسع عشر ـ وهو قرن

الايدئولوجيات - تبحث جميعاً عن حلول للألغاز الاجتماعية، والمشاكل الاقتصادية، وعن حلول سياسية وطبقية، وبعبارة أخرى انها كانت تبحث عن كيفية العيش - وهذه هى مهمة الايدئولوجيات - أما فى القرن العشرين فاننا نرى خروج الايدئولوجيات من الساحة، وأن أعظم قضية تستقطب اهتمام فلسفة هذا القرن هى قضيةٌ أسمى من قضيه كيفية العيش، انها قضية «كيفية كينونة الانسان ذاته». وهذا هو مايحدد مَن هم فلاسفة القرن العشرين؟... انهم: هيدجر - وياسبرس - وسارتر و ماركوز - و الكسيس كارل.

هؤلاء هم فلاسفة القرن العشرين العظام. ونحن نرى أن هؤلاء الفلاسفة قد تبنّوا قضية كشف هذا اللغز، أى لغز الانسان، وأنهم أقاموا فلسفتهم، ومدارسهم الفلسفية على أساس هذه القضية باعتبارها أكثر القضايا أهمية فلماذا باتت قضية شرح ووصف حقيقة الانسان أكثر الامور حساسية فى القرن العشرين على العكس من القرون الماضية؟ ولماذا بات بقاء الانسان لغزاً من أكبر ألغاز القرن العشرين؟ ولماذا بُنيت فلسفة هيدجر و سارتر الوجودية على أساس شرح ووصف معنى الانسان الحقيقى؟ ولماذا بذل الكسيس كارل جهده لمعرفة الانسان ولوضع علم باسم «معرفة الانسان» ودوّن كتابه الشهير «الانسان هذا المجهول» أجل هذا «المجهول».. هذا «الغامض».

ومما يبعث على التأمل أنّ الكسيس كارل الذى نال جائزتين للنوبل فى الفيزيولوجيا وزرع العروق وهذا الذى وضع ولاول مرة فى العالم فى مؤسسة «راكفلر» فرعاً خاصاً «لمعرفة الانسان»، وهذا العالم الذى وضع أسس علم الانسان، هاهو يخرج من جميع دراساته العلمية والفلسفية بهذه النتيجة أن يقول: «الانسان هذا المجهول».

اننى أريد اليوم أن أطرح هذه القضية فى حدود الوقت المحدد، وأن آخذ بكم الى قضية القرن العشرين الأساسية، والى أكثر الأزمات الفكرية حساسية المتحكمة بالفكر الحضارى الجديد، وأشرح لكم كيف ولماذا أدّى تاريخ التطورات الثقافية والفكرية والاجتماعية للانسان الى جعل الانسان أكثر مجهولية، وأكثر غموضاً فى القرن العشرين، ولماذا تذكر الفلسفة والعلم الانسان باللغز، وتسميه بالمجهول الغامض، فى حين أن فلسفة القرن التاسع

عشر كانت تتحدث عن الانسان بكل وضوح وحسم، وكانت قضية الانسان فى القرن الثامن عشر قضية بديهيه واضحة وفى القرن السابع عشر، هذا القرن الذى حفل بالمثقفين الذين دحضوا الدين والفلسفة وسائر المدارس، وأقاموا مدرسة الحياة على أساس أصالة الانسان وهذا يعنى كيف كانت قضية «الانسان» بديهية بالنسبة لهم، وفى القرون الوسطى، نرى أن هناك تعريفاً جامعاً ومانعاً للانسان، وقبل ذلك كان فلاسفة اليونان وروما قد قدموا تعريفاً سهلاً بسيطاً للانسان تماماً كما يفعل عالم الطبيعة، أو عالم الفيزياء بالنسبة لتعريف أى كائن حىّ، وعندما يقول أرسطو: «الانسان حيوان ناطق» يلقى قبولاً من لدن الجميع، وعلى هذا، وحيث انّ قضية معرفة الانسان بشكلها العلمى والفلسفى كانت مطروحة منذ ٢٤٠٠ ـ ٢٣٠٠ عام أى منذ عصر أرسطو وحتى عصرنا الحاضر فلابد أن يكون الانسان قد عُرف واكتشف تماماً اليوم، الاّ أنانراه يصبح أكثر تعقيداً وأكثر غموضاً كلما اقترب الى القرن العشرين، حيث انّ كبار مفكرّى علم «معرفة الانسان» فى عصرنا، يظهرون اليوم عجزهم أساساً عن معرفة الانسان، وكان هناك أشخاص جربوا العديد من المدارس الفكرية، وسلكوا العديد من السبل بحثاً عن معرفة حقيقة الانسان بيد انهم عادوا فى النهايه يائسين محرومين، ثم فارقوا الحياة دون أن يقدموا تعريفاً للانسان.

لماذا يبحث الفن المعاصر اليوم سواء فى الرسم أم فى الموسيقى أم فى المجالات الأخرى عن كشف أعماق الانسان المجهولة وانه كلما تقدم فى بحثه أكثر أصيب بالخيبة والحرمان أكثر. ولماذا يتهرب العلم أساساً اليوم عن اعطاء تعريف علمى «للانسان وماهيته»؟

لقد عرف الناس الواعون فى قرننا الحاضر ملاحظتين متباينتين، الأولى اعتراف القرن العشرين بغموض وتعقد حقيقة الانسان، والثانية اجماع مفكرّى القرن العشرين فى مجال التربية والتعليم والسياسة والاجتماع ووضع الايدئولوجيات والمدارس الفكرية، اجماعهم كلّهم على عدم جدوى أى مشروع أو أية ايدئولوجية قبل معرفة الانسان ذاته. وهاتان الملاحظتان صحيحتان.

اذن ماالعمل؟ فـي الماضـي، لم يكـن لدى علماء الدين وعلماء التربية والتعليم، وعلماء الاجتماع، وزعماء الناس، والقـادة السـياسيين، ومسـؤولى الفئات والطبقات، لم يكم لديهم جميعاً تعريف للانسان، لان مفهـوم الانسـان كان واضحاً لديهـم، وعلى أسـاس هذا المفهـوم كانوا يضـعون نظاماً للتربية والتعليم، وفلسـفة تربوية تعليمية وأسـلوباً تربوياً، ويضـعون خـطة للحياة الاجتماعية وللحضـارة وللعـائلة وللمجتمع ولأمثال ذلك. بيد أن الناس اليوم لهم قدر كاف من الوعى والبصـيرة، وان انسـان اليوم بات يدرك ان الحضـارة هى شكل من أشكـال حياة الانسـان، وان التربية والتعليم عبارة عن مجموعة القيم التى لابد وأن يتم نقلهـا فـى نظام التربية والتعليم وعلى يد الاخصـائيين الى جيل المستقبل القابل لكل شىء.

اذن تقوم فلسفة التربية والتعليم سواء على مستوى رياض الأطفـال أو على مستوى الجامعات، على أسـاس معـرفة بنية الانسـان و معـرفة تربيته أما الايدئولوجية فهى عبارة عن بيان الوضـع الموجـود وتخـطيط لحياة الانسـان المنشودة، أو لانقاذ طبقـة، أو لبلوغ اهداف وامانى فئـة اجتماعية. والدين، هو عبارة عن مجموعة من عقائد وأحكام تأخـذ بالانسـان الى الفـلاح وتدعوه الى النجاة، وتجعله كما ينبغى أن يكـون. بيد أن الدين والايدئـولوجية والحضـارة والتربية والتعليم ـ بهذه التعاريف التى ذكرتهـا ـ لايمكـن أن تكـون قـائمة، ولايمكن أن تتحقق، ولا يمكن أن يكون لهـا اىّ مفهـوم الاّ بعـد أن يتّضـح معنى الانسان. فالحديث عن الحضارة دون أن نتحدث عن الانسـان ودون أن نعلم ماهى حقيقته أشبه مايكون بمهندس يشيّد داراً بأفضل اسـلوب تكنلوجـى دون أن يعرف شيئاً عن العائلة أو الفـرد الذى يريد العيش فـى هذه الدار، وان الايدئولوجية وتقديم الحلول لقضايا الانسـان فـى ـ الوقـت الذى يكـون فيه الانسان نفسه مجهولاً ـ اشبه بأن نبذل جهدنا لانقاذ أو ارشاد أو نجاة أشخاص لانعـرف من هم وماذا ينقصـهم وممَّ يتعـذّبون، وما هى احتياجـاتهم الواقعية؟ وان بذل الجهود المتواصلة فى طـريق الحضـارة والصـناعة ـ كما نفعـل اليوم عادة ـ من أجل انسان لانعرف بعد اى شـىء وأية حقيقـة هو، أشـبه بأن نضـع الحلول ونقدم المشاريع، ونتنبأ بالمستقبل ونوصف العـلاج، لشـخص لانعـرف

فقط ويصنع العرفان. ولهذا نرى معظم المستشرقين يولون المخطوطات الصوفية أهمية بالغة، ويعيدون تحقيق كل مخطوطة عشر مرات، فى الوقت الذى لاتزال فيه تسعة وسبعون بالمائة من مخطوطاتنا العلمية متروكة فى المكتبات، يبليها الزمن، وتتآكلها الفئران لايعلم أحد بوجودها. انهم يفعلون هذا، ليُفهموا الشرقى وليقولوا له: انك لا تصلح الاّ للمشاعر الذهنية المجردة وللماليخوليا والهورقليا.. وانك عندما تفيق، وتهبط من السماء الى الأرض والى الحياة، لا مناص لك الاّ اتّباع أنظمتنا، و أن تكون محتاجاً الى سلعنا.

انهم قسموا العالم الى قسمين: عالم الماديات وهو مستنقع و «جيفة» وهو للانسان الغربى، وعالم المعنويات، والابدية وماوراء الطبيعة وهذا العالم بأسره لك أيها الشرقى! هكذا قسّموا دنيا الشرق ودنيا الغرب. وليس من الصدفة أن تتواجد هذه العنصرية فى القرن العشرين، فهذه الفكرة، فكرة جاهلية، كيف تراها تظهر على المسرح فى القرن العشرين؟ انها تعود الى العرب فى الجاهلية وقد زالت عندما ظهر الاسلام، فكيف يظهر نظام أفضلية الغرب وال «اگوسانترية» الغربية egocentrisme وال «أكسيدانتالية» occidentalisme ثانية فى القرن العشرين؟ لأن رسالة الأصالة العنصرية، والأفضلية العنصرية هى أساساً أن يفهم الشرقى أنّ عنصره من الدرجة الثانية، وأن يعتقد أنّ عنصر الغربى هو من الدرجة الاولىٰ، والغربى هو صانع الثقافة، وهنا تظهر صلة الأمّ وطفلها بين المستعمِر والمستعمَر تلقائياً، اذ يعتبر الاستعمار نفسه المدينة الأمّ، ويعتبر الآسيوى، والافريقى أطفالاً غير مهذّبين، يجب عليهم أن يتأدّبوا فى أحضان هذه الأمّ. ففى ديالكتيكية سوردل تتكون هذه الصلة، حيث تطرد الأمّ طفلها، والطفل ـ ولكى يكون فى مأمن من هجمة الأمّ، ولأنّه يخشاها ـ نراه يلجأ الى أحضان الأمّ ذاتها. وهذه هى ديالكتيكية تنفى نفسها بنفسها بما تنطوى عليه من تناقض، وتبعث على الاجتذاب وعلى الوطنية، فحين يشعر الشرقى أنّه فارغ وخاو، وأنّه ينتمى الى دين منحطّ والى عنصر منحطّ وأنّ ثقافته منحطة وجماله منحطّ، وفنّه منحطّ، وأدبه منحطّ، ونظامه الاجتماعى منحطّ، وتاريخه منحطّ، وشخصياته التاريخية منحطّة، وأمجاده العريقة منحطة، وأنه لايملك شيئاً، فسيشعر تلقائياً بالعار ويجد نفسه

متّهما بحقارة وانحطاط عنصره. ومن أجل أن يبّرئ نفسه، ويُبعد عنه هذه التهمة، يتشبّه بالغربى، ليقول بعدئذٍ: اننى لست من ذلك العنصر المتهّم، اننى مثلك أنت أيّها الغربى. أجل انّه يتظاهر بالتشبه بالغربى فى شتى المجالات، التشبه به فى مناحى العيش وفى السلوك، وفى الحركات، وفى السكنات. وفى التصرف، وفى التجمل. اذن فالتقليد ظاهرة هى وليدة ديالكتيكية سوردل، فى مجال الصّلة بين الشرقى والغربى..

واليوم، وبعد أن انتزع الغرب من الانسان فى كل مكان، قاعدته الذاتية والثقافية، وقابليته للانتاج الذاتى وخلاقيته، وتدفّقه، وجعله كالعبد محتاجاً، وذليلاً، وملتمساً، وحقيراً، وملتصقاً بالغربى ومقلداً له.. ماالعمل؟ لقد رفع المثقفون منذ خمسة عشر عاماً وكآخر تجربة ثقافية معادية للاستعمار فى العالم رفعوا شعار «العودة الى الذات». هذا صحيح، ولكن الملاحظة التى أود أن أطرحها أنا هى أن أسأل: العودة الى أيّة ذات؟ الى تلك الذات التى ينادى بها ـ امه سهزر ـ أم الى تلك التى أملكها أنا فى ايران؟ فذاته تختلف عن ذاتى أنا، ولهذا انّنا عندما نقول العودة الى الذات، نفترق عن بعضنا. أنا هنا فى ايران كمثقف ايرانى و امه سهزر ـ أو ـ فرانس فانون ـ كمثقفين أفريقيين متعلمين، ومثقف آخر من جزائر آنتيل فى أمريكا اللاتينية. فى حين اننا عندما أفُرغنا من ذواتنا كنا جميعاً وكما يقول ـ ياسپرس ـ مستغربين، ومن خريجى جامعات فرنسا نشبه بعضنا بعضاً، ذلك لاننا كنا جميعاً قد اتجهنا الى الغرب وأصبحنا مقلدين مستغربين assimilé أما الآن، ونحن نريد العودة الى قواعدنا الثقافية فلا بدلنا أن نفترق ويذهب كلّ واحد منا الى داره والى بلاده. اذن فعندما نقول نحن المثقفين: «لِنعد الى ذواتنا»، وكلّنا متفقون على هذا الأمر، فلابّد لكل واحد منّا أن يحدّد لنفسه أنّه الى أية ذات يريد أن يعود؟ أى يحدّد الذات التى يريد العودة اليها. (وهذه مسألة لم تُطرح بعد فى ايران). اذ يختلف شعار المثقفين الافريقين فى العودة الى الذات عن شعار مثقفى المجتمع الاسلامى ومثقفى ايران فى هذا المضمار. فالاستعمار عرض الثقافة على افريقيا بشكلٍ، وعلى البلدان الاسلامية فى الشرق المتمدن، وعلى المجتمع

الايرانى ـ وهو مجتمع شرقى متمدن، واسلامى متمدن فى آن واحد ـ بشكل آخر وان ماطرحه مثقفونا المعاصرون خلال السنوات الخمسة عشر الأخيرة هو تماماً انعكاس لاطروحة ـ امه سەزر ـ و ـ فرانس فانون ـ وأمثالهم. فى حين لايعالج هذا الانعكاس داءً لنا على الرغم من اعتقادى الشديد بالاطروحة ذاتها، ذلك لأن الغربى قد تحدّث معى أنا المسلم الايرانى الشرقى بطريقة، وتحدّث مع ـ امه سەزر ـ الأسود الأفريقى بطريقة اخرى، انه يقول للعنصر الأسود: انّ عقلك لايستطيع صنع الحضارة لأنّ العناصر هى على نوعين فى العالم، نوع صانع للثقافة، ونوع غير صانع للثقافة ويجب أن يُستخدم العنصر الاخير (اللاصانع للثقافة) كالعبد وكالاجير لخدمة العنصر الأوّل (صانع الثقافة). ولكنه لايقول لنا انّكم لستم بصانعى الثقافة، بل بالعكس انه يجاملنا كثيراً، ويحشّمنا حتى نكاد نذوب خجلاً. فقد جاء الغربيون الى الشرق، وبذلوا جهداً كبيراً، وتحملّوا العذاب وقضوا العمر فى دراسة النقوش الأثرية واكتشاف الآثار التاريخية. لقد طُبعت افضل وأحسن آثارنا و مخطوطاتنا فى باريس و لندن و غيرها، وعرضت على العالم كأعظم الآثار التاريخية، وللسيّد جيب Gibb موقوفة لطبع مخطوطاتنا القديمة، انهم يرون فى تعظيم ماضينا ثواباً اذن اننا لم نستحقر، فالغربيون يبجلوننا دائماً، و يستندون الى ماضينا أكثر منّا، انه نفس الغرب الذى يقول للأسود المثقف: ليس لك ماضٍ، وانّك كنت عبداً دائماً، عبداً للعرب أو للقبط، والآن أصبحت عبداً للغرب. اذن ماهو معنى العودة الى الذّات؟ الغربى يقول للافريقى: انك لاتملك حضارة، ولكنه يقول لنا عكس ذلك، يقول لنا لقد كانت لديكم حضارة كبرى. يقول له: انك غير قادر على صنع الثقافة، ويقول لنا انكم صنعتم الثقافة، اذن نفى ثقافة الماضى بالنسبة للأفريقى، وشوّه ثقافتنا وماضينا، والتشويه أسوأ من النفى. ليتهم قالوا لنا: انه لم يكن لديكم دين تقدّمى فى الماضى، ولا كتاب ولا علم ولا أدب، ولا أىّ شىء آخر، لنثبت نحن لجيلنا بأنّنا كنا نملك كل شىء، أجل، انّهم لم يفعلوا هذا.

انّنى اذ أقول الماضى، لا أقصد الماضى الذى أصبح مقابر، وانّما أعنى الماضى الموجود حالياً، الماضى الذى هو كلاسيكيّة حيّة، والذى نشعر به الآن

ونعيش به، الماضى الذى يصنع شخصيتنا الثقافية، والماضى الذى نستند اليه، أجل أقصد ذلك الماضى الذى يصوّرونه فى عينى مشوّها ومظلماً، ومنحطاً وكريهاً، وقبيحاً. انّ الغربى يقول لى - امه سهزر - انّكم لاتملكون شيئاً ويقول لى: انكم تملكون كلّ شىء، غير أنه يصوّر لى ذلك بشكل كريه، بغية أن أهرب من تلك الصور الكريهة الى أحضان الغربى نفسه. لماذا ليس للشاب الافريقى قضية باسم الهروب من الرجعية، الهروب من الماضى، الهروب من القديم؟ المثقف الأسود يزهو بكل بساطة بكونه أسود، وبكونه أفريقياً، وحتى بكونه قبلياً فى حين ان ماضى الافريقى ليس ماضياً يبعث على الفخر والزهو والاعتزاز. أما المثقّف وحامل الشهادة الايرانى المسلم فى الشرق، لايشبه الايرانيين بالمرّة، ولايشبه المسلمين بتاتاً انّه يستهزأ بكل شىءٍ ويتظاهر بالغربيّة.

كان يجلس بجانبى فى الطائرة مرة، شخص سألته أن يعطينى صحيفته لأقرأها. فلا حظت أن لهجته غربيّة لدرجة أنه لم يستطع التحدث معى، فقلت فى نفسى لاشكّ أنه نسى الفارسية لطول اقامته فى الخارج، غير أننى وجدته لايجيد اللغة الغربية وذلك عندما طلب منه أحد المسافرين الغربيين شيئا ما. انظروا مدى هذا التظاهر. فكثيرا مارأينا اشخاصاً ذهبوا الى اوربا لعامين أو ثلاثة أعوام، وعادوا يتباهون بنسيانهم اللغة الفارسية، وأنا أقول، لمثل هولاء: أيها الاحمق، مادام لديك مثل هذه القابلية لتنسى خلال ثلاث سنوات، لغةً تعلّمتها فى خمس وعشرين سنة! فكيف تتعلم اللغة الخارجية خلال ثلاث سنوات؟ لم هذا التظاهر؟.. تراه يخشى أى شىء؟ انّه يخشى نفسه، انه يكره ذاته، ويكره كل من ينتسب هو اليه، وكل من يذكره بذاته المحقّرة والقبيحة وهو يشكر كل من لا يذكره بذاته، ويميل اليه ويزهو بصداقته، أو بالأحرى بالتظاهر بصداقته لأنه يجهل العنصر الذى ينتمى اليه صاحبنا.

ترى، لماذا تبدو هذه «الذات» قبيحة، كريهة فى نظرنا، حيث يتهم جيل الشباب كل من ينتسب اليها وكل من ينتسب الى ثقافتنا والى ماضينا، والى ديننا سواء بالاعتقاد أو بكونه عالماً اخصائيا و باحثا.. ولماذا يتّهم جيل الشباب

المثقف، كلّ مثقفٍ يطرح هنا شخصيةً كشخصية أبىذرّ الغفارى (وهى شخصية فذة لو طرحت اليوم فى اوربا، لاعترفت بها القوى التقدمية الاوربية كشخصية ثورية تقدمية عظيمة). انّهم يتّهمونه بالتمسّك بالقديم البالى امّا اذا قام هذا الشخص نفسه بنقل اغانى المومس اليونانية ـ بليتيس ـ مثلاً الى اللغة الفارسية أصبح شخصية عصرية تقدمية مثقّفة.

لماذا يقضى جيل المثقفين المسؤول وصاحب الايدئولوجية، والذى يفكّر بمصير مجتمعه ويشعر بالمسؤولية الاجتماعية والطبقية، لماذا يقضى حياته بقضايا كالشعر الحديث، والشعر القديم، والفنّ للفنّ، أو لغير الفن، او بالسيد يونسكو أو السيد جوزوئه دوكاسترو؟

فليست هذه البحوث التى يقوم بها مثقفنا بحوثاً اجتماعية، وانما هى أقذر هيروئين يتسرّب ثانية الى دم هذا الجيل، لماذا يتظاهر هذا المثقف المسؤول الذى يعتبر نفسه ذا رسالة وذا مسؤولية، لماذا يتظاهر بقراءة آثار بكت فى حين ان ـ بكت ـ ليس الاّ صيتاً كاذباً انه ذات العامل المنوّم، الذى حقنوا به دم الايرانيين فى القرن السادس والسابع، ليسمموا به دمائهم، وهاهو يرد اليوم من الغرب بشكل العوبة بكت، يتظاهر بها مثقفنا ذو الايدئولوجية العلمية والطبقية. كل ذلك لأن بكت هو انسان لايمتّ لنا بصلة، أجل لايمتّ بى، ولايمت بذاتى تلك بصلة، أما أبوذر الغفارى فلابد من الهروب منه! لأنه ينتسب الينا أنفسنا ولانه ينتسب الى تلك الذات، ناهيك انه رجل ثورى من المنطلق الانسانى والاجتماعى و حتى الطبقى، وان ركيزته، ركيزة طبقية. هذا ما قام به الغربيون، لقد شوّهوا بالنسبة لنا ونفوه بالنسبة للافريقى.

لقد انعقد مرة فى مشهد مؤتمر للتعليمات الدينية حضره معلمو الدين فى كافّة المدارس و جميع المدن وطلبوا منى القاء كلمة فيه، فقلت لهم: اننى سأذكر لكم أولاً الموضوع الذى سأتناوله فى كلمتى، فاذا أعجبكم فسأتحدث، فتساءلوا ماهو ذلك الموضوع؟ قلت: انه يدور حول اقتراح لوزارة الثقافة، وهو اقتراح يتيسر تنفيذه بكل سهولة، ولايحتاج الىاخصائيين،أو الى ميزانية، فى الوقت الذى يعتبر فيه أعظم خدمة للاسلام، هذا الاقتراح هو حذف الدروس الدينية من مناهج المدارس الايرانية، واستبدالها بالرياضة لأنه لولم يكن هناك

شيء بهذا المعنى، لتيسر القول لكل فتى وفتاة يُنهى دراسته ويتخرج أن الدين هو كذا، وأن الرؤية هى كذا، وأن الوعى هو كذا وانهم سوف يتفهمون الأمر كمسألة جديدة أما حين يطرح موضوع الدين بهذا الشكل...؟

اننى كنت أبحث مرة فلسفة الامامة فى علم الاجتماع وذلك فى كوليج دوفرانس و موضوع فلسفة الشيعة فى كنيسة الجوزئيت فى پاريس، بعندما انتهى بحثى فى الكنيسة، طلب منى الحاضرون هناك أن أستمر فى البحث وبالفعل استمر الحديث حتى الصباح. وعندما طرحت موضوع الامامة فى جو جامعى ككوليج دوفرانس كان جميع المشتركين فى الجلسة وهم من الماركسيين أو الاشتراكيين أو الوجوديين او الكاثوليك أو المتدينين، أو العلمانيين يتفهّمون ويدركون الموضوع كفلسفة لعلم الاجتماع والسياسة. أما عندما أتحدث فى المجتمع الدينى الايرانى، فيكون الأمر عكس ذلك تماماً. بصورة لو كان الحديث فى جامعة طهران، فسوف أستطيع التركيز على الدين أكثر مما لو كان فى جامعة مشهد (مدينة مقدسة) ولو كان الحديث فى كلية الهندسة فسوف أستطيع التركيز على المسائل الدينية وانهم سيتفهمون الموضوع أكثر مما لو كان فى كلية الآداب او كلية الشريعة!

انّنى عندما ذكرت فى حديثى فى جامعة كوليج دوفرانس، فى جامعة سوربون أنّ بطل الثورة فى كربلاء هو رجل وفىّ هكذا، وقام بمثل هذه الأعمال، وأدّى دوره هكذا، وعاش هكذا واستشهد برجولة هكذا، صفقوا لى لأنّ هذا الموضوع لايوجد فى أذهانهم مسبقا بشكله المشوّه أما فى أذهان هؤلاء فى المجتمع الاسلامى فيوجد مشوهاً و ممسوخاً.

وتوجد نفس الخلفية الذهنية المشوّهة، بالنسبة لثقافتنا ليتها لم تشوّة، وليت الأوربى قال لنا انكم لاتملكون ثقافة ولا آداباً ولا عرفاناً ولا حضارة، ولادينا. وحينئذٍ كان بامكاننا أن نكتشف ونعيد جيلنا بكل احتياجاته وبكل فهمه، وبكل وعيه، الى الذات، أما الآن، فاننا نشم رائحة كراهية تلوح فى الأعين وفى المشاعر وفى الأذهان ونحن بصدد الحديث عن الذات، واننا نهرب نحو المثل الغربية. ولهذا فان امه سهزر يجب أن يقول: لِنعد الى ذاتنا، أما أنا فينبغى أن أتساءل: أى ذات؟ هل هى تلك الذات المشوهة، التى عرضت علينا؟ كلاّ،

لايمكن العودة الى مثل تلك الذات. انها التمسك بالتقاليد، والتمسك بالقديم البالى، وانها الرجعية الحديثة، أو لاتعلمون ان العودة الى الذات هى موجودة الآن فعلاً؟

ذهبت مرة لزيارة أحد السادة العصريين للغاية والذى كان قد عاد الى الذات بدوره! رأيت هناك انه قد وضع جلّ الحمار! فى مدخل غرفة الاستقبال فسألته: أيها السيد المحترم، هل هذا هو معنى العودة الى الذات؟. لماذا وضعت جلّ الحمار ها هنا، اذ ينبغى عليك وضعه أمام غرفة النوم! نعم، هذه العودة هى عودة الى الذات على الطراز الأمريكى، فمنذان جاء الغربيون الى هنا، وأخذوا يبتاعون جل الحمار هذا وهذه الخرز، ويعلقونها على أعناق نسائهم.. اكتشفنا نحن أنفسنا!! انظروا الى هذا الاستحمار.. الاستحمار الحديث.

اذن الى أىّ ذات نعود.. أىّ ذات؟... هل نغرق جميعاً فى مفهوم الانسية Humanisme المطلق الوهمى؟ الانسية و الأممية Internationalisme هى اليوم أكذوبة تهدف الى نفى شخصيتنا الثقافية، ونفى وجودنا جميعاً، وتريد نفينا فى انسية كاذبة وهمية لاوجود لها. فأصالة الانسان تعنى مشاركة ومساهمة كافة الشعوب فى مفهوم واحد، وفى حقيقة واحدة، أى مشاركة الانسان الصفراليد مع الانسان ذى رأس المال. اذا شاركنا نحن الفارغين من الذات، الفاقدين للثقافة معك أنت الذى تملك الوجود بأسره، فليست علاقتنابك الاّ علاقة السيد بالعبد، علاقة يشكّل الانسان الفارغ، والعامل، والأداة، أحد طرفيها والانسان الثرى، صاحب رأس المال الطرف الآخر. اذن، الغربى وحده هو الموجود، وكما يقول سارتر، لايوجد فى العالم سوى خمسمائة مليون انسان فقط. اما الباقى، أى المليارات والخمسمائة مليون انسان، فهم محليون وحسب مايقوله المستعمرون انّ المحلى يعنى الشرقى والانسان يعنى الغربى!

واذا ما أراد الشرقى ـ انطلاقاً من هذا المفهوم ـ أن يشترك فى هذه المساهمةعلى أساس الانسيةوعلى أساس أصالةالانسان الغربى، فسيعرض نفسه للذوبان فى نظام وهمى شاعرى مبنّى على الحب الكاذب المزعوم للبشرية، وهذا انكار لشخصيته هو ولكيانه ولأصالة ذاته، وما دمنا نحن محليين وأشباه أوادم وهم أى الغربيون أوادم صدق حسب ما يقولون، فان أىّ نوع من

المشاركة البشرية معهم تعتبر خيانة بحق وجودنا نحن، وينبغى علينا أن ننفصل عنهم، ونحذر منهم، لان علاقتهم بنا حسب هذه المعادلة، هى علاقة المستعمر بالمستعمر، وكيف يمكن أن تكون مثل هذه العلاقة؟ انها علاقة بين ذلك الذى يمتصّ الدم وبين الممصوص دمه. وبين ذلك الذى يُنتج فقط، وذلك الذى يجب أن يستهلك، وبين ذلك الذى يجب أن يتكلم، وذلك الذى ينصت. وبين ذلك الذى يجب أن يتحرك، وذلك الذى يجب أن يقلّده فى تلك الحركات انها علاقة بين قطبين متناقضين اذن، انها فى الحقيقة ليست علاقة، وانما ارتباط كاذب لاوجود له، يشبه فيما يشبه علاقات أخرى، مثل العلاقة المزعومة بين الافراد المنتمين الى العنصر الواحد، أو علاقة الاخوة الوطنية، وغير ذلك، وكلها علاقات كاذبة يراد اقامتها بين القطبين اللدودين المتخاصمين والمتنازعين، وذلك لصالح القوى المقتدرة، وعلى حساب الضعفاء وهى ليست علاقة، ولو كانت، فانها علاقة عدائية لانّه من البديهى أن يتوحد الدم بين العلق الذى يمتص الدم وبين الانسان الذى يُمتص دمه ولكن وحدة الدم هذه، هى وحدة عدائية بين عدوين اثنين.

على أىّ حال، هذه العلاقات، هى علاقات كاذبة، يهدف المستعمرون اقامتها بين القطبين فى العالم: القطب الاستعمارى، والقطب المستعمر وذلك باسم العنصر، و باسم الوطنية و باسم الدين. ولكن ترى، كيف يمكن لذلك الذى يعتبر نفسه انساناً ويعتبرنا محليين، ولذلك الذى يحسب نفسه العقل ويحسبنا الاحساس والشعور، كيف يمكن له اقامة علاقة معنا؟ ان برتراند راسل، هو النموذج لهذا ـ اننى لا أتحدث عن شخص استعمارى، أو استغلالى فى العالم، وانما عن شخصية تحررية شهيرة!ـ انه يقول: النفط هو ملك الحضارة وانه ليس ملكا لهذا وذاك أو للقبيلة الفلانية، أو الشعب الفلانى. انه ملك الحضارة، ملك الصناعة، ملك البشرية. ترى ماذا يعنى هذا فى النهاية؟ انه يعنى أنّ النفط هو ليس ملكاً لكم أيها المشارقة المتأخرون! انه يعود لذلك الذى يستطيع أن يتصرف به لصالح البشرية هل تراكم قادرين على ذلك؟ كلاّ.. اذن انه ملك لنا نحن المتحضّرين. نعم، هذه هى علاقتنا البشرية الأومانيّة مع الغرب. اذن الى أى ذات نعود..؟

فلو عدت الى ذاتى العنصرية، فقد أصبت بالراسية (racisme) والفاشية، والجاهلية القومية العنصرية، وهى عودة رجعية، وأنا لاأريد أن أكرّر قول الشاعر «بأن الفن لدى الايرانيين فقط.. وانما أريد أن أقول: اننى انسان، فقط» وقد شهد تاريخى بأننى فنّان وصانع للفن. أريد أن أقول: اننى انسان وصانع للثقافة والنبوغات. اذن فالعودة نحو العنصر هى عودة راسية وفاشية ونازية، ونوع من الشوفينيه الجاهلية الحمقاء، وهى عودة لنوع من تعصبات العرق المحلية الضيّقة وعودة لقيود التمسك بالتقاليد الضيقة، وهى عودة الى الجمود القومى والقبلى، اننا لانريد العودة الى العنصر، ولا نريد العودة الى الفواصل والفوارق التقليدية، القديمة، ولا نريد دفع الانسان نحو عبادة التراب والدّم. فلقد جاء مائة وأربعة وعشرين الف رسول ليدعو الانسان المختال الفخور الى عبادة الله مظهر الجمال المطلق فلم يستجب فهل ندعوه ثانية اليوم كمثقّفين الى عبادة التراب؟... فأىّ دعوة هذه؟ هل هى دعوة للعودة الى الذات..؟ كلا! هل هى عودة لذاتنا الثقافية المعنوية الانسانية التى تبلورت فى دين وثقافة وحضارة خلال مرحلة خاصة من التاريخ؟ ان لدينا ذاتاً أثرية عريقة تعود الى عصر الأخمينيين والساسانيين والأشكانيين والعصور السابقة لها، هل ياترى نعود الى تلك الذّات؟... أرجوكم الانتباه بدقّة الى هذا الجزء من حديثى، لأنه آخر مالدى من كلام.. والمسالة حساسة للغاية. تلك الذات هى الذات الاثريّة القديمة التى سجّلها التاريخ، والذات التى وقفت القرون الطويلة حائلاً بيننا وبينها، ومزقت القرون الطويلة وشائجنا بها.

فذاتنا الأخمينية الأثرية القديمة، هى ذات بامكان المؤرخين وعلماء الاجتماع، والعلماء، والأثريين اكتشافها فى طيّات التاريخ، وقراءتها وتفهمها، الاّ أنّ شعبنا لايشعر بتلك الذات كذاتٍ له، ولا تعيش شخصيات وبطولات ومواهب وأمجاد وأساطير تلك العهود بين الناس هاهنا اليوم ولا تتحرك ولاتنبض. اذ جاءت الحضارة الاسلامية وأحدثت فجوة بين ذاتنا فاصبحت لنا ذات ماقبل الاسلام وذات مابعده، وباتت الذات التى تعود الى ماقبل الاسلام، قابلة للدراسة والرؤية فى المتاحف والمكتبات فقط وعلى يد العلماء والاخصائيين، أما عامّة الناس من أبناء شعبنا فهى لاتتذكر شيئاً منها، انظروا

الى الألوح والنقــوش والآثار التاريخية المتواجــدة اليوم بين الناس، فما هو شعور الناس تجاهها؟... وكيف يعرفونهـا؟ منهم من يقول: ان الجن هو الذى كتب تلك الألواح والنقوش! وفـى هذا دلالة واضـحة على انعــدام وجــود آيّة علاقة بين الناس، وبين تلك الآثار التاريخية.

وخلاصة القول أن العودة الى الذات التاريخية التى ندعو اليها، ليسـت عودة الى التمسك بالماضـى، والى الآثار البالية، والى الألواح والنقـوش، والى جـلّ الحمار، وانما هى عودة الى الذات الموجودة بالفعـل فـى نفس وفـــى ضـــمير المجتمع، والتى بامكـان المثقف أن يسـتخرجها ويعـالجها من جــديد، كمادة وكمصدر للطاقة، كى تحييٰ، وتنبض وتتحرك ثانية، وانها عودة الى تلك الذات الحية وليست هذه الذات، هى الذات الأثرية القائمة على أساس هياكل عظمية بالية، و انما هى الذات القـائمة على أسـاس شـعورنا العميق بالقيم المعنوية والانسانية لدينا و بالروح والقابلية المتواجـدة فـى فـطرتنا والتى أغفلنا عنهـا الجهل والانقطاع عن الذات وتركها الانجذاب نحو الآخرين مجهولة، ولكنهـا لاتزال حية تنبض بالحـركة والحياة، وليسـت هى كلاسـيكية علم الآثار الجامدة، أجل انّ هذه الذات تتدفـق حيوية من صـميم العـامة، فما هى ياترى هذه الذات؟.. هل انّها الذات الدينية؟ والذات الاسلامية.. وأىّ اسـلام؟.. أىّ دين؟ وأقول هنا أجل، ودون تأمل أتساءل أى تشيع؟.. وأى دين؟..

نحن نعلم أن ذاتنا الثقـافية هى تلك الذات التى تجلّت فـى العـالم كثقـافة عظيمة، وذلك من خلال جامعاتنا و آدابنا وعلومنا وأمجادنا وتاريخنا وحضـارتنا، ومواهبنا وقابلياتنا المتنوعة فى مجال الفنون العسكـرية والرياضـيات والعلوم، والنجوم، والآداب، والعرفان فى السنوات الألف أوالالف والمائة سـنة الاخيرة الماضية، ولهذا، واذا ماواجهـت أوربيًّا منتميا الى نهضـته الأوربية أسـتطيع أن أقول له: اننى انسان أنتسـب الى ثقـافة اسـلامية كبرى، وهاهى الشـخصيات والوجوه، وهاهى الحضـارة والقـابلية على الخلق والابداع، والخـلاقية، كلهـا لدىّ، ولدى حضارتى. ولكن المسالة هى أنه: أىّ اسلام؟.. وأى دين، هل انه ذلك الاسلام الموجود فعلاً؟.. الاسلام الموجـود فـى صـميم المجتمع بشكله الرتيب اللاواعى؟ فالعودة اليه تحصيل للحـاصل لانه هومايعيشـه الناس الآن

وما يعملون ويؤمنون به بدون جدوى. بل هو مايشكـل أحـد عوامل جمودهم. وأحد عوامل التمسك بالتقاليد، وبالجهـل، وبالماضـى، وبعبادة الفـرد، وتكـرار المكررات. فالشىء الموجود حالياً باسم الدين لايسلب من الانسان مسـؤولياته الفعلية فحسب وانما يجعله لايشـعر بكـونه كائناً حياً فـى هذه الدنيا، وهو دين غير قادر على تبيين الحسـاسيات والمشـاكل للناس، ولهـذا نرى أنّ فـرداً ما يكتب من مسافة الف كيلومتر ليقول: سيدى لدىّ مشكلة عظيمة لاأبرح أفكـر فى معالجتها منذ عدة أيام دون أن أتوصل الى حلّها، فالرجاء منكـم أن تجـدوا حـلاً لمشكلتى هذه، والآن انظروا الى مشكلته تلك، ماهى أبعـادها؟.. انه يقول: لقد كان آدم وحواء كما نعتقد أول انسانين خلقهما الله عزوجلّ وان باقى أبناء البشر قد توالدوا منهما، طيب هنايبرز هذا السؤال وهو كيف تزاوج النسـل الأول لآدم وحـواء وكانا أخـوة من أب واحـد وأمّ واحـدة؟ هذه هى المشكلة وكانها مطروحـة الآن، وكأن أبناء آدم وحـواء قـد ذهبا تواً الى مكتب تسـجيل الزواج، وأن مسؤول المكتب أبى التسجيل فاشكل الأمر!

أجل، انه نفس الدين الذى حـوّل المسـائل والأفكـار، والتفكير من مرحلة ماقبل الموت الى مرحلة مابعد الموت ولاشأن له بهذه الدنيا، وانطلاقـاً من هذا الدين يقوم الانسان بكل أعماله من أجل الآخرة، ولايشعر بأىّ واجب عليه فى هذه الدنيا، لا بالنسبة لتنمية نفسه، ولا بالنسـبة للحياة الاجتماعية ولا بالنسـبة للقيام بمسـؤولياته الأخـرى هذا هوالذين الذى يكـرهه كل مثقف له وعى اجتماعى، ويهرب منه، وها اننى أقـول كلمة واحـدة وهى أن اسـتنادنا هو على ذاتنا الثقافية الاسلامية وينبغى علينا أن نرفع شعار العودة الى هذه الذات. لأنها أقرب الينا من أى شىء آخر وانها الحضارة والثقافة الحية الوحيدة الآن، وانهـا الروح والحياة، والايمان الوحيد الموجـود فـى صـميم المجتمع، هذا المجتمع الذى يجـب على المثقف أن يعمل فيه، ويعيش فيه، ولكـن ينبغـى الخـروج بالاسـلام من شكله الرتيب وتقـاليده اللاواعية التى تشكـل أكبر عامل للانحطاط، الى اسـلام تقـدّمى، مُتحـدٍّ ومثير للوعى، ويجـب أن يُطرح كايدئولوجية تبعث الوعى، وتنوّر ليستقيم هذا الوعى الذى تقوم عليه مسـؤولية المثقف فى العودة الى الذات والبدء من الذات، سواء كان ذا اتجـاه دينى أم لم

يكـن، على أعمق الأسس لواقعنا المعنوى، وشـخصيتنا الحقيقية الانســانية الحية المتواجدة فى صميم المجتمع، وليتغذّى من رأس المال هذا ويقف على قدميه، وفى ذات الوقت، وبعملية للتبديل يجب أن يخـرج الاسـلام من شكله التقليدى الاجتماعى، الى ايدئولوجية، ومن شكله كمجموعة للمعـارف العلمية التى تُدرّس الى ايمان يمنح الوعى الذاتى، ومن شكله كمجموعة الشــعائر والعلامات والأعمال التى يقام بهامن أجـل ثواب الآخـرة فقـط الى أكبر قـوة تمنح الانسان قبل الموت المسـؤولية، والحـركة، والاندفـاع للتضـحية، والى عامل عظيم يسـتخرج لنا الوعى والحـبّ من صــميم هذا المجتمع المثقف، ويأتى فى هذا الجيل بتلك المعجـزة البروميثية، ليحقّـق أخيراً وفـى ظـل هذه الطاقة ذلك الاعجاز الذى هو وليد الوعى والايمان، ويتحوّل الجمود فجأة الى الحركة، والجهل الى الوعى، وهذا الانحطاط الذى دام قروناً الى قيام وحركة جيّاشة متفجّرة. وهكذا وبهذا الشكل يعود المثقّف ـ سـواء كان ذا اتجـاه دينى أم لم يكن ـ الى ذاته الواعية الانسـانية الحيّة القـويّة ليقف بوجـه الاســتعمار الثقافى الغربى ويوقظ بالدين مجتمعه الذى يُنوِّم بواسطة الدين نفسه ويدفع به الى الحركة، ويقف على قدمى الانسـان المنتج للمعنويات ويظهـر كجيل يعتبر استمراراً لحضارته، وثقـافته، وشـخصيته المعنوية وكانسـان بشكـل بروميثية يأتى بنارالله الى الأرض.

* * *

متطلبات انسان اليوم

أيها الطلبة الأعزاء، فى هذه الليلة التى أتحدث فيها اليكم لأوّل مرة، وفـى هذه الفرصة التى أتيحت لى لتبادل الفكر مع أصدقائى فـى هذا المكـان لأول مرة أودّ أن أتناول قضية من أهم القضايا التى تشكل الأساس لجميع القضايا، ولكافة العقـائد، ومختلف الايدئـولوجيات المتناقضــة التى من الممكــن أن تحملوها الآن، أو تلك التى ستختارونها فى المستقبل، وهى كذلك أساس كل اسلوب وقع أو سيقع عليه اختياركم فى التفكير والايمان والحياة. تلك القضية التى باتت أكبر لغز، فى القرن العشرين لاسيما بعد هزيمة العلم فـى الحضـارة العلمية الجديدة، والتى أوجدت أكثر الأزمات حساسية، حيث اقترن اسم قـرننا باسم تلك الأزمة وهذه الأزمة هى أزمة «الانسان» وهذا اللغـز هو «الانسـان نفسه».

وقد أثار العلم خلال القرون الأخيرة، وبعد انتصاره على القـرون الوسـطىٰ، وفى المرحلة المعـروفة بمرحلة «الاسكـولاستيك» وبعـد انتصـاره على الدين السائد فى الغرب خلال القرون الوسطى، وانتصار «السيانتيسم» وخـاصة فـى القرن التاسع عشر وكذلك بعد الانتصارات والنجاحات الباهرة التى حققها العلم فى كشف المجهولات الكثيرة، والتى لايزال يحققهـا فـى يومنا هذا، أثار أكبر سؤال، وأوجد أكبر لغز الا وهو «لغز الانسان ذاته».

ان أزمة الفلسفة الجديدة هى فى الأساس أزمة «معرفة الانسـان»، وليس من الصدفة أن نرى مختلف الايدئولوجيات فى القرن التاسع عشر ـ وهو قـرن

الايدئولوجيات - تبحث جميعاً عن حلول للألغاز الاجتماعية، والمشاكل الاقتصادية، وعن حلول سياسية وطبقية، وبعبارة أخرى انها كانت تبحث عن كيفية العيش - وهذه هى مهمة الايدئولوجيات - أما فى القرن العشرين فاننا نرى خروج الايدئولوجيات من الساحة، وأن أعظم قضية تستقطب اهتمام فلسفة هذا القرن هى قضيةِ أسمى من قضيه كيفية العيش، انها قضية «كيفية كينونة الانسان ذاته». وهذا هو مايحدد مَن هم فلاسفة القرن العشرين؟... انهم: هيدجر - وياسبرس - وسارتر و ماركوز - و الكسيس كارل.

هؤلاء هم فلاسفة القرن العشرين العظام. ونحن نرى أن هؤلاء الفلاسفة قد تبنّوا قضية كشف هذا اللغز، أى لغز الانسان، وأنهم أقاموا فلسفتهم، ومدارسهم الفلسفية على أساس هذه القضية باعتبارها أكثر القضايا أهمية فلماذا باتت قضية شرح ووصف حقيقة الانسان أكثر الامور حساسية فى القرن العشرين على العكس من القرون الماضية؟ ولماذا بات بقاء الانسان لغزاً من أكبر ألغاز القرن العشرين؟ ولماذا بُنيت فلسفة هيدجر و سارتر الوجودية على أساس شرح ووصف معنى الانسان الحقيقى؟ ولماذا بذل الكسيس كارل جهده لمعرفة الانسان ولوضع علم باسم «معرفة الانسان» ودوّن كتابه الشهير «الانسان هذا المجهول» أجل هذا «المجهول».. هذا «الغامض».

ومما يبعث على التأمل أنّ الكسيس كارل الذى نال جائزتين للنوبل فى الفيزيولوجيا وزرع العروق وهذا الذى وضع ولاول مرة فى العالم فى مؤسسة «راكفلر» فرعاً خاصاً «لمعرفة الانسان»، وهذا العالم الذى وضع أسس علم الانسان، هاهو يخرج من جميع دراساته العلمية والفلسفية بهذه النتيجة أن يقول: «الانسان هذا المجهول».

اننى أريد اليوم أن أطرح هذه القضية فى حدود الوقت المحدد، وأن آخذ بكم الى قضية القرن العشرين الأساسية، والى أكثر الأزمات الفكرية حساسية المتحكمة بالفكر الحضارى الجديد، وأشرح لكم كيف ولماذا أدّى تاريخ التطورات الثقافية والفكرية والاجتماعية للانسان الى جعل الانسان أكثر مجهولية، وأكثر غموضاً فى القرن العشرين، ولماذا تذكر الفلسفة والعلم الانسان باللغز، وتسميه بالمجهول الغامض، فى حين أن فلسفة القرن التاسع

عشر كانت تتحدث عن الانسان بكل وضوح وحسم، وكانت قضية الانسان فى القرن الثامن عشر قضية بديهيه واضحة وفى القرن السابع عشر، هذا القرن الذى حفل بالمثقفين الذين دحضوا الدين والفلسفة وسائر المدارس، واقاموا مدرسة الحياة على أساس أصالة الانسان وهذا يعنى كيف كانت قضية «الانسان» بديهية بالنسبة لهم، وفى القرون الوسطى، نرى أن هناك تعريفاً جامعاً ومانعاً للانسان، وقبل ذلك كان فلاسفة اليونان وروما قد قدموا تعريفاً سهلاً بسيطاً للانسان تماماً كما يفعل عالم الطبيعة، أو عالم الفيزياء بالنسبة لتعريف أى كائن حىّ، وعندما يقول أرسطو: «الانسان حيوان ناطق» يلقى قبولاً من لدن الجميع، وعلى هذا، وحيث انّ قضية معرفة الانسان بشكلها العلمى والفلسفى كانت مطروحة منذ ٢٤٠٠ ـ ٢٣٠٠ عام أى منذ عصر أرسطو وحتى عصرنا الحاضر فلابد أن يكون الانسان قد عُرف واكتشف تماماً اليوم، الاّ أننانراه يصبح أكثر تعقيداً وأكثر غموضاً كلما اقترب الى القرن العشرين، حيث انّ كبار مفكرّى علم «معرفة الانسان» فى عصرنا، يظهرون اليوم عجزهم اساساً عن معرفة الانسان، وكان هناك أشخاص جربوا العديد من المدارس الفكرية، وسلكوا العديد من السبل بحثاً عن معرفة حقيقة الانسان بيد انهم عادوا فى النهايه يائسين محرومين، ثم فارقوا الحياة دون أن يقدموا تعريفاً للانسان.

لماذا يبحث الفن المعاصر اليوم سواء فى الرسم أم فى الموسيقى أم فى المجالات الأخرى عن كشف أعماق الانسان المجهولة وانه كلما تقدم فى بحثه أكثر أصيب بالخيبة والحرمان أكثر. ولماذا يتهرب العلم أساساً اليوم عن اعطاء تعريف علمى «للانسان وماهيته»؟

لقد عرف الناس الواعون فى قرننا الحاضر ملاحظتين متباينتين، الأولى اعتراف القرن العشرين بغموض وتعقد حقيقة الانسان، والثانية اجماع مفكرّى القرن العشرين فى مجال التربية والتعليم والسياسة والاجتماع ووضع الايدئولوجيات والمدارس الفكرية، اجماعهم كلّهم على عدم جدوى أى مشروع أو أية ايدئولوجية قبل معرفة الانسان ذاته. وهاتان الملاحظتان صحيحتان.

اذن ماالعمل؟ فـى الماضـى، لم يكـن لدى علماء الدين وعلماء التربية والتعليم، وعلماء الاجتماع، وزعماء الناس، والقـادة السـياسيين، ومسـؤولى الفئات والطبقات، لم يكم لديهم جميعاً تعريف للانسان، لان مفهـوم الانسـان كان واضحاً لديهـم، وعلى أسـاس هذا المفهـوم كانوا يضـعون نظاماً للتربية والتعليم، وفلسـفة تربوية تعليمية وأسـلوباً تربوياً، ويضـعون خـطة للحياة الاجتماعية وللحضـارة وللعـائلة وللمجتمع ولأمثال ذلك. بيد أن الناس اليوم لهم قدر كاف من الوعى والبصـيرة، وان انسـان اليوم بات يدرك ان الحضـارة هى شكل من أشكـال حياة الانسـان، وان التربية والتعليم عبارة عن مجموعة القيم التى لابد وأن يتم نقلهـا فـى نظام التربية والتعليم وعلى يد الاخصـائيين الى جيل المستقبل القابل لكل شىء.

اذن تقوم فلسفة التربية والتعليم سواء على مستوى رياض الأطفـال أو على مستوى الجامعات، على أسـاس معـرفة بنية الانسـان و معـرفة تربيته أما الايدئولوجية فهى عبارة عن بيان الوضـع الموجـود وتخـطيط لحياة الانسـان المنشودة، أو لانقاذ طبقـة، أو لبلوغ أهداف وأمانى فئـة اجتماعية. والدين، هو عبارة عن مجموعة من عقائد وأحكام تأخـذ بالانسـان الى الفـلاح وتدعوه الى النجاة، وتجعله كما ينبغى أن يكـون. بيد أن الدين والايدئـولوجية والحضـارة والتربية والتعليم ـ بهذه التعاريف التى ذكرتهـا ـ لايمكـن أن تكـون قـائمة، ولايمكن أن تتحقق، ولا يمكن أن يكون لهـا أىّ مفهـوم الاّ بعـد أن يتّضـح معنى الانسان. فالحديث عن الحضارة دون أن نتحدث عن الانسـان ودون أن نعلم ماهى حقيقته أشبه مايكون بمهندس يشيّد داراً بأفضل أسـلوب تكنلوجـى دون أن يعرف شيئاً عن العائلة أو الفـرد الذى يريد العيش فـى هذه الدار، وان الايدئولوجية وتقديم الحلول لقضايا الانسـان فـى ـ الوقـت الذى يكـون فيه الانسان نفسه مجهولاً ـ أشبه بأن نبذل جهدنا لانقاذ أو ارشاد أو نجاة أشخاص لانعـرف من هم وماذا ينقصـهم وممَّ يتعـذّبون، وما هى احتياجـاتهم الواقعية؟ وان بذل الجهود المتواصلة فى طـريق الحضـارة والصـناعة ـ كما نفعـل اليوم عادة ـ من أجل انسان لانعرف بعد أى شـىء وأية حقيقـة هو، أشـبه بأن نضـع الحلول ونقدم المشاريع، ونتنبأ بالمستقبل ونوصف العـلاج، لشـخص لانعـرف

ماكانت عليه فى الغرب ـ سببا للانحطاط ثم يؤول الامر الى ماترون اليوم، فى حين انه عندما كان الدين سائدًا هنا فى الشرق، كانت هناك مكتبات وحضارات ونظم اجتماعية وحتى نظم تشريعية متقدمة لامثيل لهـا حتى اليوم. فـالمكتبات التى كانت موجودة فى القرن الرابع لاتوجـد نظائـرها فـى العـالم اليوم. كانت هناك مكتبة اسـمها «دارالكتب» وكان يسكنهـا خمسـون أو سـتون عالماً، ويتوافد عليها الطلاب من أنحـاء العــالم، يسكنون فيهـا، وحتى انهـم كانوا يتمتعون بمنح دراسية، وكانت حياتهم مضمونة طوال الفترة التى يقيمون فيهـا بالمكتبة المذكورة للتحقيق. وكان هؤلاء يقومون بدراساتهم وبحـوثهم تحـت اشراف أساتذة كانوا يعيشـون بدورهم فـى تلك المكتبة، ولكننا اليوم أصـبحنا أناسـاً نموذجيين أنيقين ، مفـروضين على المجتمع لاخير فينا الاّ اسـتهلاك مايقـدّمه الغـرب لنا، ليس لنا انتاج ذهنى ولا انتاج عينى ومع ذلك اننا نرى أن تكرار واعادة المسائل «العينية» للغرب أصبحت مسألة «ذهنية» لنا!

فعلى هذا فان على ذوى المطالعة، وذوى التفكير المطلق أن يحتفظوا دائماً بصلاتهم مع الواقـع الحـىّ للحياة الاجتماعية وذلك لتبيين الواقـع الاجتماعى بمساعدة العلم، ولصيانة العلم من الانحـراف نحـو الذهنية بمسـاعدة الواقــع الاجتماعى، والاّ فـانهم سـوف يصـابون بانحــراف ذهنى وبنوع من الذهنية يسمونها علماً، وفلسفة وايدئولوجية وفناً، وهى فـى الأسـاس انكـار للواقــع الموجود، وهذه هى نفس المسألة التى كانت مطروحة فى القرن التاسـع عشـر فى مجـال البحـوث العلمية الاجتماعية، وذلك تحــت عنوان «الالينـاسـيون الثقـافى» و الـ «اليناسـيون انتيللكتوئــل» أى الاختلال الثقــافى، وها هى مطروحة بشدة اليوم.

النظام الطبقى:

النظام الطبقى عدوّ آخر من أعداء الانسـان، فـالنظام الطبقــى آخــر وأكبر وأقوى العوامل المعادية للانسـان، وهو بمثابة البنية التحتانية للثقـافة وللفكـر وللدين وللافراد، وهو يفسد بالتالى كل شـىء، لأنه يؤدى الى مسـخ وتشـويه الانسان فى جميع أبعاده. اننا عندما ننظر الى التاريخ، نرى أن البشرية كحقيقة

جوهرية ثابتة قد تجزأت، وقد انقسمت لأول مرة الى قطبين متنازعين، ونتيجة لهذا الانقسام يظهر السيد والعبد، والفقير والغنى، والمتمتع والمحـروم ويؤدى هذا الانقسام كذلك الى ظهور نوعين من الانسان انسان له شـرف يفقـده فـى الحقيقة النجباء، وانسان ليس له شرف يملكه فى الحقيقة العامة وتظهر العامة بشكل تفقد فيه القيم الانسانية التى يملكها كل انسان، ويظهر النجباء بشكـل يملكون فِيه قيماً ليست انسانية بالمرة، وهنا يُنفى الانسان تماماً وينكر. ولكـن أى أنسان؟.. اننى أكرر هنا كلام داسـتايوسكى حيث يقـول: عندما يقتل أحـد شخصاما يتأسف الجميع على المقتول حيث كان حياً، وأصبح الآن مقتولاً، فى الوقت الذى ينبغى فيه التأسف على ذلك الشخص الذى ارتكب جـريمة القتل، لأنه كان انساناً وأصبح الآن قاتلاً. ويقول «آلبرممى» فـى كتاب صـغير ولكنه عظيم فى مضمونه و من أفضل الكتب التى كُتبت فـى العـالم حـول الصـلة العلمية الاسـتعمارية، تحـت عنوان: «سـمات الدول الاسـتعمارية والدول المستعمرة» بان العلاقة بين الشرق والغـرب هى علاقـة اسـتعمارية وليسـت علاقة لا انسانية. لقد بذل الجميع جهـدهم لدراسـة ومعـرفة مدى مايعـانى الانسان الافريقى والآسيوى والامريكى اللاتينى المسـتعمر من حـرمان ومن انحرافات، ولم يأتِ أحد ليقول: ان ضحايا النظام الاستعمارى اثنان: أحـدهما الانسان الآسيوى والافريقى، اذ كان انساناً حـراً واصبح انسـاناً مسـتعمراً، والآخـر الانسـان الاوربى، الذى جعله الاسـتعمار، اسـتعمارياً. وكتاب «الكركدن» الشهير لـ «أوجـن يونسكـو» والذى يمثل على المسـرح فـى طهران حالياً (طبعاً المسرحية ظهرت بشكـل آخـر، اما العمل فهـو رائـع للغايه)هذا الكتاب يريد أن يقول: ان على الانسانِ فى هذه الأنظمة أن يكـون له قرن وسـط جبينه تماماً كالحيوان المعـروف بوحيد القـرن أو الكـركدن ليستطيع أن يضرب بهـذا القـرن ويقتل ويهـرول، وذلك اذا ما أراد البقـاء والاستمرار فى العيش، والاّ قُضى عليه، ولكن ماذا يحدث للانسان لو لم يفعل هذا؟ انه يصبح كبطل رواية «المسخ» للكاتب كافكـا (الرواية ترجمهـا صـادق هدايت الى الفارسية)

وخلاصة القـول: ان الانسـان فـى هذه الانظمة يفنى ويقضـى عليه أى انه

يتحول الى ظاهرتين لا انسانيتين، أحدهما قاتل والآخر مقتول، أحدهما استعمارى والآخر مستعمر، أحدهما يستثمر ويمتصّ الدماء كالعلق، والآخر مُستثمَر وهو مريض، ويجد هذا النظام الطبقى له وعلى امتداد التاريخ أشكالاً مختلفة ونظماً متعددة ومراحل تاريخية شتى، ولكن لاكما يقول أوجين يونسكو فقط حيث يحّول الانسان الى «وحيد القرن» ولا كما يقول كافكا فقط حيث يحول الانسان الى «المسخ» بل بصورة أخرى وأنا ساقدم لكم القائمة الكاملة لذلك.

لقد حوّل النظام الطبقى الانسان وهو حقيقة واحدة وكل أفرادها من جنس واحد، الى أربع فئات لاانسانية.. الى أربعة حيوانات هى: الذئب والثعلب، والفأرة، والباقى كلهم غنم. ولهذا نرى الانسان يعود الى المادّية، ويصبح ظاهرة مادية لاغير، ونراه يعود الى الدين (ذلك الدين الذى كان موجوداً وسائداً فى التاريخ) ويصبح تجسيداً للانكار المطلق ازاء الميتافيزيقية. ويعود الى العلم فيضحى بالعلماء من أجل المفاهيم اللاعلمية والاتجاهات اللاعلمية، وتحقيق الاهداف اللاعلمية ويتجه نحو الصناعة، فتهضمه الصناعة بدل أن تصبح فى خدمته وانتاج مايتطلبه، وتجعله جزءً صغيراً منها وتحمله على العمل لها. ويتجه نحو الاختصاص، ويكثر من الانتاج. والتقدم، ويكون بالتالى ضحية هذا الانتاج الأكثر وهذا التقدم الأكثر. والخلاصة أن الانسان أينما يتجه ونحو أى دين و أى نظام وأية ايدئولوجية، يكن أسير ذلك الاختلاف الطبقى، لأن النظام الطبقى حوّله الى قطبين لا انسانيين، وعلى هذا الأساس أصبح الانسان فى قرننا هذا ـ وهو قرن افاقة الانسان ـ لغزاً كبيراً فى جبين القرن، وعلامة استفهام كبرى تجاه الفكر المعاصر، أنّه: من هو، وما هو؟

ان على جميع الفلسفات، وعلى العلم، وعلى المثقفين عليهم جميعاً أن يحددوا نوعاً من الايمان و المعرفة الدقيقة لكيفية الانسان، اذ لابد أن تهدف كل ايدئولوجية وكل حضارة وكل فلسفة تاريخية وكل نظام تربوى تعليمى، وكل شكل من أشكال الحياة الى انقاذ الانسان على عكس ماكانت تفعل فى الماضى حيث كانت تنتهى جميعاً الى نفى وانكار الانسان أو التضحية به أو تجاهله. ولكن ماهو معنى انقاذ الانسان؟.. انه يعنى وضعه فى حالة يستطيع

فيها أن يكون فى نهاية كماله الممكن حـراً واعياً وخـلاّقاً. انه الآن أيضـاً خلاّق،ولكنه ليس حراً، ولهذا نراه وقد أصبح أداة للانتاج بيد انسان آخـر. وانه واع ولكنه ليس حراً ولهذا نرى العالم منه يباع كالعبد للسـيد. ففـلاح الانسـان ونجاته هو أن يكون واعياً.. حراً.. خلاقاً كما عينه الله خليفـة له فـى الطبيعـة حيث قال فى كتابه الكريم: (واذ قال ربّك للملائكـة: انى جـاعل فـى الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسـفك الدّماء ونحـن نسـبح بحمدك ونقدّس لك، قال: انى أعلم مالا تعلمون) ومن هو الله الذى نحـن خليفته؟ هو الواعى والحر والخلاق. ولهذا نرى الانسان يصبح لغـزاً ويصـبح أزمة ويصـبح سؤالاً فى القرن العشرين بينما لم يكن كذلك فـى القـرن التاسـع عشـر ونرى المثقفين يبحثون كلهم عن ايمان لهذا الانسان وعن سبيل لانقـاذه بغية انقـاذ حريته ووعيه وخـلاقيته، من قيود جميع الانظمة الفـاسدة وقيود العلم والقـدرة والتناقضات، ومن أجـل أن يعيدوا له شـرفه الذى هو أسـمى من طبيعته، لأن المادّية قد سلبت منه الحياة والحـرية. ومن أجـل هذا يبحـث ضـمير الجيل الجديد اليوم عن دين أسمى من الدين السـائد فـى التاريخ كما أنه يبحـث عن صورة الهية للوجود، وعن حب منطقـى انسـانى للعيش، وعن مثال أسـمى من اطار النظم العقلية الصناعية التكنلوجية المنحطّة والمفروضة علينا.

وفى خضمّ هذا البحث، وهذا الجهد، ترانا نبحث نحـن عن الاسـلام، وعن ثقافتنا الاسلامية وثقافتنا الشـرقية، ونبحـث عن قيمٍ نلبى بهـا ما يصـبو اليه ومايبحث عنه الضمير البشرى اليوم..

• • •



دار سُروش للطباعة والنشر - الجمهورية الاسلامية الايرانية

الثمن: ٥٠ ريالاً ايرانياً